يَحيَ القَيْسِي

حَيَواتٌ سَحيقَةٌ

رِوايَة

الطبعة الأولى: دار خطوط وظلال – عمّان – الأردن - 2020

المؤلف: يحيى القيسي

رقم الإيداع لدى المكتبة الوطنية: 1400 – 5- 2020

الرقم المعياري الدولي: 978-9923-761-22-9

الإهداء

إلى فُرسانِ الأنوارِ العُلويَّة في رحلتِهم الأرضيَّة

لا مَناصَ مِمَّا جَرى.

فالمقادير تُساق بأعنَّةٍ خفيّةٍ في ذلك العالم الغامض، وتُوضعُ أمامنا كخياراتٍ شهيَّة.

بدا له كلُّ شيءٍ مُرتَّباً بشكلٍ دقيقٍ، بما في ذلك الانقياد السَّلس للوقوعِ في شِباكِ ما دون غيرِه.

فقط لو أنّه صبرَ قليلاً.

أو ربّما لو أنَّه انتبه أكثرَ، فقد يتغيَّر كلُّ شيء.

يستحضرُ الآن تفاصيلَ ما جرى في شعاب ذلك الجبل الصَّخري، هناك عند أطراف "البَتْراء"، المدينةِ الفاتنةِ، حيث تجلسُ الأبديَّةُ خاشعةً في رحابِ طبيعتِها الجامحة، فيما يعْرجُ الفنُّ الباذخ نحو الأعالي مُبتهجاً من رَوعتها.

هناك داهمتْهُ فُيوضات الأحْوال الغريبة، فاجتاحت بلا هوادة ما تبقّى عنده من وعيٍ، وأفسدتْ عليه مَسيرة أيَّامه المُطمئنَّة، حتى غدَا مثل خيمةٍ اشتدّت عليها الرّيحُ في يومٍ عاصف، تتطوَّح في كلّ اتّجاه.

فقط لو يهدأ قليلاً كي يَستوعب ما جَرى، ويستذكر ببطءٍ تلك الأحداثَ التي تنبثقُ الآن بقُوَّة من أعماقهِ عن تفاصيل تلك الليلة شديدةِ الضَّنْك. هناك على مَقرُبةٍ من مَقام رجلٍ من الصَّالحين، حينما قادته ظروفُ عملهِ لمرافقةِ فريقٍ تلفزيٍّ بريطاني، جاء خِصّيصاً لتصوير فيلم وثائقيّ، يرصد فيه دخول الرحّالة السويسري

"بيركهارت" في العام 1812م إلى ما تبقى من خرائبِ هذه المدينةِ المقدودة من الصّخر، ويتتَّبعُ طريق ذلك الشابّ المُتحمّس القادم من "لندن" إلى هذه الدّيار، التي كانت ترزح وقتئذٍ تحت نير الدولة "العُثمليّة"[1].

كان على "صالح"، كباحثٍ ومُساعدٍ في إعداد الفيلم، أن يقودَ فريق التَّصوير إلى المواقع التي مرّ عليها الرَّحَّالة، ويُزوّدهم بالمعلومات الضَّروريَّة عن حياته، وما وردَ في مُذكراته عن الأمكنة، والقبائل، والعادات في ذلك الوقت، كي يقوم الفريق بمحاولة ترجمتها بشكلٍ عمليٍ حسب السيناريو المكتوب للفيلم.

من الواضح أنَّ الشَّرق لم يكن مَقصِد "بيركهارت" في ذلك الوقت، بلْ مُجرّد محطَّةٍ تمويهيَّة له من أجل الوصول إلى "تُمْبكتو" مدينة الكنوز الضائعة في مجاهل أفريقيا، عبر خطّة مُحكمة لا تقود إلى الشكّ به، إذ قرّر أن يأتي أولاً من أوروبَّا إلى حلب، ثم يقطع الطريق الطويل من هناك عبر سوريا إلى جنوب الأردن، كي يعبر بعدها إلى " صحراء سيناء"، ويصل إلى "القاهرة"، ومن هناك يتسلَّل مع الحُجَّاج الأفارقة العائدين باتّجاه "مالي".

لم تكن "البَتْراء" في باله إذن، فقد ظلَّت هذه المدينة، ذات التاريخ الضارب في القِدَمْ - حتّى ذلك الحين - مجهولةَ المكانِ لدى الغرب، لكنَّ كلَّ شيءٍ يأتي في أوانه، وربّ صُدفة خير من تخطيط مُحكم.

رافقَ الفريقَ مُمثّلان للقيام بالأدوار في هذه المهمّة التي تُحاول رَصْدَ تلك اللحظات الَّتي هبطَ فيها ذلك المُستشرق المُتخفّي بلباسٍ بدويّ، ولُكْنة عربيَّةٍ هجينة، برُفْقة أحد الأدلاَّء من أهالي "وادي موسى"[2] باتّجاهِ بقايا المدينة.

بَدتْ لهُ تلك الأحداث شديدةَ النُّصوعِ، وهو يستحضرها بكلّ تفاصيلها الدقيقة، غير أنَّها تتشوَّش بين الحين والآخر، حين تلحّ عليه تلك اللمحة الضَّئيلة من الزمن، هناك على منحدرات ذلك الجبل ذي الحجارة الصَّوَّانية الحادَّة حيث جرى له ما جرى..!

1 اشتقاقًا من كلمة" *عثملي* "*Osmanlı* - التركية، وهي التعبير المحلي في بلاد الشام ومصر عن الدولة العثمانية.
2 بلدة سياحية تقع على مشارف مدينة البتراء الأثرية في جنوب الأردن، وعلى بعد 250 كلم من العاصمة عمّان

ربَّما لو أنّه صبرَ قليلاً لتغيّرت الأحوال تماماً..!

وصل الفريقُ بِمُعدَّاتهم من كاميرات، ومصابيح إضاءة، وعاكسات..، إلى مدخل "السّيق"[3] الضَّيّق والمُتعرّج، الذي يُشكّل ممرّاً سرّيّاً إلى قلب "المدينة الوردية"، كما يُسمّيها الأهالي، ربَّما لجمال تلك التشكيلات اللونيَّة في بُطون صخورها الصَّلدة، فيما تجرف ظهورها الشُّقوق القاسية، التي ليس بينها وبين الشمس أيّ حجاب.

قبل ذلك "السّيق" بمئات الأمتار شاهد "بيركهارت" على الجانب الأيمن من المنحدر في ذلك الوقت كُتلاً من الحجارة الضَّخمة المُكعَّبة الشكل، والتي لم يكتمل نحتها كما يبدو، إضافة إلى المسلاّت المتآكلة بفعل عوامل الحتّ والتعرية وتصاريف الدهر، حينها لاحظ دليله البدوي، الذي كان يحمل على رقبته جدياً، أنّ مرافقه الأجنبي غريب المظهر والأطوار، يحاول التدقيق في المنحوتات، والتريُّث في المسير.

قال له بصرامة حاثَّاً إيَّاه على المُضيّ قُدُماً:

- انتبهْ يا شيخ فكلّ ما تراه هنا من صُنْع الجنّ!

ظهرَ واضحاً أنَّ "جون لودفيغ بيركهارت"[4] بلحيته الكثَّةِ، ووعثاء السفر الَّتي تُغطّي ملامحه، واسمه المُستعار "إبراهيم" يبذلُ جُهداً استثنائيًّا، كي يبدو مُسلماً من "ألبانيا"، لا يُثير أيّة شبهات، لكنّ ذلك لم يشفع له عند دليلهِ، الذي كانت حاسَّة الشكّ عندهُ عاليةً، فلم يستطع أن يمنحه التَّمهُّل المطلوب، حتى يرسم شيئاً ممّا يرى أمامه، أو يتمعَّنَ في تكوينات الصُّخور من حوله.

بَدَا خائفاً أيضاً أن ينتبه إليه أحدٌ من الأهالي، فيظنُّه تاجراً طمّاعاً، جاء بحثاً عن الدفائن والكنوز، أو ربَّما - إن ساء حظّه - جاسوساً من الأجانب الشُّقر ذوي العيون الزرق، الفرنسيين أو الإنجليز، ممَّن يُشكُّ بهم في تلك

[3] السّيق: ممرّ صخري ضيّق يشقّ طريقه باتجاه المدينة الأثرية.

[4] Johann Ludwig Burckhardt

الفترة الحافلة بالصّراعات، لكنَّ أكثرَ ما أثارَ الهَلَعَ في نفسه حينَها، أنْ يكتشف أحدٌ ما بحوزته من الأوراق الّتي تحوي خطَّة سير رحلته، ومذكّراته، ورسُوماته، وخرائطه، فيقوم بإتلافها، ويذهب جُهده الهائل هباءً منثوراً.

في أحسن الحالات فإنَّ رجلاً معزولاً وَسْط هذه الوِهاد المُقفرة، قد يغدو مَطمَعاً لكلّ مُتربّصٍ وقاطِع طريقٍ، لما يُمكن أن يَضمّه جِرابُه من الأموال، وحتّى ملابسه قد لا تَسلم من النَّهب أيضاً، لا سيّما في تلك السنوات البعيدةِ الحرجة، حيث ضعُفت سيطرة العُثمانيين على هذه المناطق النائية المُزدحمة بالفقر وعدم الاستقرار، إضافة إلى صعوبة التَّواصل مع أيّة بعثاتٍ لسفاراتٍ غربيةٍ، قد تؤمن له الحماية، أو حتى بُعد المسافة إلى الأماكن المأهولةِ الّتي ربّما يتواجد فيها من يُمكن أن يُقدّم له العون.

صحيحٌ أنَّه ظهر كرحّالةٍ ومستشرقٍ في بعض جولاته، وكشيخٍ ألبانيٍ في مواطن أخرى، لكنَّه كان يدرك في قَرارة نفسه أنَّ هذه الأقنعة والألقاب قد تساهم في إضفاء شيءٍ من الغُموضِ أمام هؤلاء المَشارقة حول حقيقةِ عمله الأقرب ما يكون إلى الجاسوسية، إذ قامت "الجمعيَّة الإفريقيَّة" في لَندن، التي تعملُ في مُساندة الاكتشافات الخاصَّة بقارة أفريقيا بتوظيفه مثل الكثيرين كباحثين جغرافيّين ورحَّالة. وهذا غطاءٌ يبدو نبيلاً في ظاهرهِ، لكنّهُ في النهاية وُجد كي يخدم الخِطط الاستعماريَّة الخفيَّة للامبراطوريّة البريطانيّة الشَّاسعة، ويُساند أعمالها للسيطرة على الشُعوب الأخرى، وفهم ثقافاتها في تلك الفترة المُبكّرة.

يُخيَّل إلى "صالح" وهو يترك نفسه لانثيالاتٍ تأتيه جليَّة مثل فَلَقِ الصُّبح عن تلك الأحداث، أنَّ مُخطَّطاً كونيّاً جاهزاً لكلّ واحدٍ منّا كي يتورَّط فيه، فما جرى مع ذلك الشابّ السويسريّ حينها قد حَرَفَ حياته باتّجاهٍ مُغايرٍ تماماً لما خطَّط له، أمَّا هو نفسه فتلك الحادثة التي شهدتها هذه المدينة الأثريّة التليدة، قلبتْ مَسيرة حياته رأساً على عقب، وبدتْ له أكثر جُموحاً ممَّا يمكن أن يستوعب.

حينَ وصل الشابُ الجامعيُّ المُتعطّش للعلم والمعرفة "لندن" في العام 1806 م قادماً من مسقط رأسه "بال" السويسرية، كانت بوادرُ الإحباطِ ظاهرةً على وجوه أعضاء "الجمعيَّة" لموت الرَّحَّالة السَّابقين في ظروفٍ غامضةٍ، من الذين تمّ إرسالهم لاستكشاف "تُمبكتو"، لهذا وجد "بيركهارت" أنَّهُ المُرشَّح الأقوى للقيام بهذه المُهمَّة، خصوصاً حين تقدَّم إليهم بخطَّةٍ لاختراقِ القارَّة الإفريقيَّة من الشَّمال، عبر مرافقة قوافل الحجيج العائدة عن طريق "القاهرة".

اقتضتْ تعليمات "الجمعيَّة" في ذلك الوقت أن يتعلَّم اللُّغة العربيَّة لمدَّة عامين في "حلب"، وأن يُتقنها كما أهلِها، ثم يختلط بالبدو الضَّاربين خيامهم حول المدينة لعام آخر حتى يُصبح مستعدّاً لأيّ احتمالات قد تواجهه في رحلته.

وها هو يُبعث حيَّاً من جديد، بعد قرنين كاملين، في صُورة هذا الممثّل الإنجليزيّ، وبرفقته دليلُه البدويّ، فيما يبذلُ أعضاء فريق الفيلم الآخرين جهوداً مُضنِية لاستعادة تلك اللحظات التاريخيَّة النَّادرة.

حالَ وصولِه قريةَ "وادي موسى" شاهد "بيركهارت" أكواماً من الحجارة موضوعةً فوق دماء الذبائح التي كانت تُقدّم قرباناً لمقام هارون. عبثاً حاول الأهالي إقناعه بأنْ يذبح الجَدْيَ الذي اشتراه عند تلك الكَوْمة، لكنَّه أصرّ على أن يكون الذَّبح عند المَقام نفسه، مُخفياً في أعماقه هدفه الحقيقي، بأن يتعرّف على تفاصيل ذلك المكان وما حوله.

قام حِينها باستئجار دليلٍ له من سكَّان المنطقة البدو، كَوْنَه يعرف جُغرافيَّتها وأسرارها، بعد أن أخبره مُسبقاً بأنّه نَذر لله تعالى أن يذبح الجديّ عند ذلك المقام بالضبط، وليس في أيّ موقع آخر.

وضع البدويُّ الجَدْي الهزيل فوق كتفيه، فيما راح ثُغاؤه يعلو بين الحين والآخر، ربَّما من شدَّة العطش أو من قبضة البدويّ غير المتراخية، بينما حمل "بيركهارت" بنفسه قِربةَ ماءٍ جلديَّةً زُوَّادة للطَّريق.

يُدرك "صالح" أنّ لغته الإنجليزيَّة الجيّدة، وخبراته كدليلٍ سياحيّ، هي ما أسهم بشكل أساسيّ في عمله هذا مع فريق التصوير، إضافة إلى الحيويّة التي يتمتَّعُ بها، وقدرته على التَّواصل مع الناس بشكل سَلِسٍ.

ليست هذه المرَّةُ الأولى الّتي تُتاح له الفُرصة للقيام بمثل هذه المهمَّات، فقد سبق أن رافق الكثير من السيَّاح في مدينة "الأنباط" العرب الفريدة، ذاتِ التَّاريخ الذي ما يزال عصيَّاً على المُستكشفين، ويبدو له أنَّ ما وصل عنها في فتراتها المُبكّرة النزر القليل، من اجتهاداتٍ مُتحيّزةٍ من بعض المؤرخين أمثالِ اليهودي "يوسيفوس"، والجغرافيّ اليوناني "سترابو"، فأغلبُ ما كُتب عنها حتَّى اليوم ظلَّ مُجرّد إشاراتٍ، لن تُغني عن الحقائق الّتي ما تزالُ أسراراً في صناديق مُقفلةٍ، تحتاجُ إلى الكثير من الباحثين المُتأمّلين، كي يكتشفوا كنوزها، ويُخرجوها إلى العالم، ولو بعد حين..!

يتذكَّر كلَّ هذه اللَّحظات كأنَّها حدثت للتوّ، وهو يراقب المُمثّلَيْن إذ يَعبران "السّيق" مُتجاوزين بقايا القوس الحجريّ المُنتصب في مَدخلِه:

"كم من التَّبدُّلات الكثيرة حدثتْ في هذا المكان قياساً لما كان الحال عليه قبل قَرنين من الزَّمان. من الصَّعب إعادةُ زرْع تلك الأشجار التي كانت تُحاول أن تَسِدَّ مدخلَ السيّق، ورفع الحجارة المتساقِطة من القوس، وعمل أكوامٍ من الرمال التي كانت قد تجمّعت بفعل السيول..".

مع ذلك جرى التصوير على أفضل ما يكون من رضا مُخرج الفيلم "غاريث" عن اللَّقطات التي تمَّ تصويرها، ودهشة الفريق الباديةِ على وجوههم، وهم يواصلون ولوجوهم المكان بكلّ تفاصيله، فيما كان "صالح" يتدخَّل أحياناً لتصحيح بعض المسارات، أو تقديم الاقتراحات.

"السّيق" رَحِمُ المدينة الخفيُّ، يشقُّ في تعرجاته الجبال الصخرية الشاهقة إلى نصفين، يكادان يلتقيان في الأعلى أحياناً، أو يفترقان بشكل جليّ، فتبدو زرقة السماء من بينهما أو تغيب، بينما يمسحُ الضوءُ المتوهّجُ تلك الظّلال

الناعسة فوق المنحنيات وعلى بطن الصخر، بانتظار الوصول إلى تلك اللَّحظة التي تنحني فنون البشريَّة أمام روعتها، حيث تعانق "الخزنة" بكامل بهائها الأنظارَ المشرئبَّة إليها.

ورغم الآلام التي تفغر فاها في جسده كلَّ حين، وتُشوّش الصُّور التي تمرُّ أمامه، إلا أنَّه لا يمكن أن يُبادلها بتلك اللَّحظة المُشرقة، والدَّهشة العارمة لوجه "بيركهارت" في تلك السَّنوات الأولى من القرن التاسع عشر حينما وقعتْ عيناهُ عليها، فحبس أنفَاسهُ، وتوقف متشرّباً كلَّ تفاصيلها الدقيقة دفعةً واحدةً، وشاهقاً بصوت غاصَ عميقاً في داخله:

يا إلهي..أين كان مُختفياً كلُّ هذا الجَمال؟

لمْ يطل فريق الفيلم وقفته هناك؛ إذ ثمَّة عملٌ كثير بانتظاره، فحين بدأوا جميعاً بالانحدار قليلاً نحو الغرب أصبح الوادي يتَّسعُ تدريجيّاً، وظهرت الغُرف المنحوتة في الصخرِ على جانبيه، والكثير من الأضرحة والكهوف، وقبل مواصلة سيرهم خلف خُطى المُمثّلَيْن، لاحظ "صالح" أنَّ المُخرج انحرف فجأةً إلى كهف على جهة اليمين مُخصَّصٍ لبيع الأطواقِ المصنوعة من الخَرزِ، والخواتم المُفصَّصَة بالأحجارِ المُلوَّنة، إضافةً إلى الفِضّيَّات، وبعض المُنتجات الشعبيّةِ، والبطاقات السياحيّة.

ربّما يكون الكتاب المعلّق على باب الكهف قد شدَّه إليه من عنوانه الصارخ "تزوجت بدويا"[5]، إذ راحَ يتصفَّحه بِشغَفٍ، مانحاً فريقَ العملِ استراحةً لعشرِ دقائقَ قبل المُواصلة من جديد.

كانت مؤلّفة الكتابِ ممرّضةً نيوزلندية، جاءت إلى "البتراء" سائحةً في العام 1978، وقد قادها قدرُها إلى التَّعرُّف إلى صاحب الحانوت "محمد عبدالله"، الذي سُرعانَ ما جذبَها بسُمرته المُحمَّصة، وشبابه الفوَّار، وطيبته الفائضة، فقرَّرا معاً الارتباط إلى الأبد. شاركتهُ بدايةً العيشَ في المكان نفسه بما فيه من عبقٍ قديمٍ، وتاريخٍ

[5] Married to a Bedouin by Marguerite van Geldermalsen

نابضٍ، ففي تلك الفترة من السبعينات اعتاد أبناء قبيلةِ "البُدول" اتّخاذ الكهوف الأثريَّة المحفورة في الصخور بيوتاً لهم، قبل أن تقرّر الدولة ترحيلهم في العام 1985 إلى إسكانٍ قريبٍ، وضع خِصّيصاً لهم من أجل المحافظة على ما تبقى من الآثار من عوامل الطمسِ والتخريب، ولحسن حظّ "غاريث" أنَّ "أمَّ رامي" مؤلّفة الكتاب كانت هناك، وهذا هو الاسم الَّذي صارت تُدعى به بعد إنجابها ابنها البِكْر، مُتخفّفةً من اسمها النّيوزلندي السابق "مارغريت فان غيلديرملسين" الذي يصعُب نطقُه من قِبَلِ الأهالي.

تعرَّف عليها المخرج من قرب في تلك الدقائق القليلة، ووقعت له نُسْخةً من كتابها بعد دردشةٍ قصيرةٍ عن بعض تفاصيل حياتها في ذلك الكهف، إذ عَرَفَ منها كيف عاشت مع زوجها هناك سبعَ سنواتٍ مُتواصلةٍ بداية قُدومها، وقيامها بنقل المياه إليه على ظهور الحَمير بالقِراب الجلديَّة، والصَّفائح المعدنيَّة "الجركنات"، كما أخبرته باقتضاب أنّها تعلّمت أن تعجن الطَّحين، وتُعدُّ الخبزَ، وتطهو على نيران الحطبِ، والأهمُّ من ذلك قدرتها على تجاوز النَّقْلة الحضاريّة، من قلب الغرب وزَمْهريرهِ، إلى بَساطة الشَّرق ودفئه.

ظهرتْ الدَّهشةُ على وجه "غاريث" وهو يستمع إليها، وراقَبها وهي تنشغل بكلّ حيويَّة ببيع السُّيَّاح بعض ما يحتاجونه، فيما يتبلبلُ لسانها بين لُغات كثيرةٍ دعتها الحاجةُ إلى إتقانها، إذ يهبط إلى هذه المدينة يوميّاً الكثير من السُّيَّاح القادمين من شتَّى أنحاء العالم لاكتشاف أُعجوبةِ الدُّنيا الثَّامنة.

من الواضح أنَّه اتَّفق معها بشكلٍ أَوَّليّ على العودة مرَّة أخرى، خلال الأشهر المُقبلة، ليُنجزَ فيلماً وثائقياً عن تجربتها المُثيرة، فقد ظهر الحماسُ جليّاً على تعابير جسده الجَذْل حين عاد إلى مُواصلة التَّصوير بنشاطٍ، وهو يُخبر أعضاء الفريق، مشيراً إليهم بالكتاب:

- **يا رفاق.. لدينا فيلمٌ جديد قريباً...استعدّوا.**

تابع "بيركهارت" مسيره، بعد أن انطبعت آثار الدَّهشة طويلاً على قسمات وجهه من مشاهدة "الخَزْنَة". رأى في وَسْط الوادي ما تبقَّى من بيوت المدينة وشوارعها، وبركةً مُبلّطةً بالحِجارة المُربَّعة تحفُّ بها ساحة تضمُّ مقاعد حجريّة مهشَّمة، وبقايا قواعد لأجزاء من تماثيل، وعدَّة نوافير محطَّمة، فيما انتبه إلى أكثر من خمسين ضريحاً منحوتاً في صفّ واحد على الجهة اليمنى؛ حيث تحتضنها دكّة الجبل الصَّخْريّ، أكبرها يشتملُ على أعمدة ضخمةٍ ذات تيجان كورنثية الطابع تشير إلى عهود الرُّومان الغابرة.

من الواضح أنَّ الوادي في ذلك الوقت كان شِبهَ مُغلقٍ؛ حيث سلسلة من الصُّخور تعترض طريقه غير أنَّ مجرىً قسريّاً للمياه اتَّخذ سبيله بين كلّ هذه العوائق المُترامية، وقد لاحظ آنذاك أيضاً بقايا بناءٍ حجريٍّ ضخمٍ على جهة اليسار يسمُّونه "قصر البنت"؛ فأراد التحوّل إليه والتجوّل فيه قليلاً لاستشكاف معالمه، لكنّ دليله البدوي صاح به غاضباً ومهدّداً إيَّاه إنْ حاول الدخول إلى هذا المكان؛ إذ أشعره بأنّ حقيقته قد انكشفت بالنسبة إليه، فلا بدّ أنَّه جاء باحثاً عن ما يمكن أن يجد من كنوز تحت ركام هذه الآثار.

لاحظ السّويسريُّ الأعزل أنّ الوضع قد تأزَّم مع دليله لهذا بدأ يُطمئِنه، ويحلف له بالله وكلّ الأنبياء الذين سمع بهم أنَّ غرضه زيارةُ المَقام فقط، والإيفاء بنذره، وأنَّ حبَّ الاستطلاع هو الَّذي قاده لمحاولة الاقتراب من ركام القصر.

شعرَ حينها بأنَّ عليه أن يأخذ تهديد البدويّ على مَحْمل الجِدّ، فهذه المناطق تقع تحت سيطرة الوهابيين منذ أربع سنوات خَلتْ، إذ لم تمرّ غير أيام قليلة على مغادرته "الكرك"، حيث رأى بنفسه هناك أنّ جنود "ابن سعود"[6] الّذين قدموا لتحصيل الخُمس من شيخ المدينة، يراقبون الناس فيها أيضاً لمعرفة مدى تطبيقهم

6 سعود الكبير بن عبد العزيز بن محمد آل سعود هو أحد حكام الدولة السعودية الأولى، حكم خلال الفترة من 1803- 1814م، وقد انتهت هذه الدولة عام 1818 م على يد الجيش العثماني بقيادة إبراهيم باشا.

للمذهب المُتشدّد. ولو استطاع مرافقُه البدويّ الحصول على الأوراق الّتي بحوزته، وإيصالها إلى من يتمكّن من فكّ حروفها الشائكة لوقع في ورطة كُبرى، بخاصَّةٍ مع تلك العبارات الَّتي كتبها في دفتر مُذكّراته:

"..وقد منحَ ابنُ سعود شيخَ الكركِ يوسف المجالي لقبَ "أمير" على جميع بدو المناطق الواقعة بين دمشق والبحر الأحمر، كما فوَّضه بمحاربة الأتراك "الكَفَرة" كما هم في عُرْف الوهَّابيّين، وطالَبه أن يَجبي الجِزْية من نصارى المنطقة المذكورة، وقبل وصولي إلى الكَرَك بيومين وصل اثنان من جُباة الخُمْس مُرسَلين من ابن سعود، إلا أنّهما عادا دون أن يحصلا على بارة واحدة، وأثناء وجودهما في الكَرك التزم المُسلمون الكركيُّون بتعاليم المذهب الوهَّابيّ، فقد مُنع التدخين نهائياً، وأصبحوا يذهبون خمسَ مرَّات للصَّلاة في المسجد، مع أنَّهم عادةً لا يصلُّون أبداً باستثناء الشَّيخ، كما أنَّهم ألقوا بالسُّبْحات بعيداً، وأصبح النصرانيُّ يمرُّ عن شمال المسلم اذا التقيا في الطَّريق، وداوموا على ذلك طيلة وجود مبعوثي ابن سعود في الكَرك.."[7]

رغم أنّ "بيركهارت" نفسه يعترف في المذكرات ذاتها بأنَّه حين وصل تلك المدينة المُحصَّنة بالقلعة وما حولها من الوديان، لم يكن يستطيع التمييز فيها بين المُسلم والمسيحيّ، فقد بدتْ العادات الاجتماعية واحدةً له، وظهرتْ الأعرافُ والتَّقاليدُ التي تجمع الأهالي هناك أقوى من رابط الدّين. مع ذلك لاحظ بحسّ الرحَّالة الفَطِن، والباحث المُتربّص بكلّ التفاصيل أنّ الكركيّين قد عادوا إلى حياتهم الاعتياديّة بلا أيّ تزمّت بعد مغادرة جنود ابن سعود، فلم يكن المسيحيّون أيضاً - كما شاهد بنفسه - يؤمُّون الكنيسة للصَّلاة حتَّى في أيَّام الآحاد خصوصاً مع وجود كاهنٍ يتلو القُدَّاس باللغة اليونانيَّة الَّتي لا يعرفونها.

عند العصر بدأ الجميع بصعود الجبل الَّذي في أعلاه يتربَّع المَقام.

[7] رحلات في الديار المقدسة والنوبة والحجاز – جون لويس بيركهارت - ترجمة فيصل أبو غوش – وزارة الثقافة الأردنية 2002

من الواضح أنَّ الطَّريق الوعِرة الَّتي نُحتت في سفحهِ تجعلُ من الصُّعود إليه عملاً شاقّاً، مع وجود الكثير من المُعدَّات الخاصَّة بالتَّصوير المُتمايلة على ظهورِ حميرٍ كسولة؛ إذ يحتاجُ الفريق بين الحين والآخر إلى تبديلِ بعض العدسات للكاميرات، والتأكُّدِ من أجهزةِ الصوتِ، وكشَّافات الإضَاءة، وسلامة الصَّاعدين.

بدا الممثّلُ مرهقاً وهو يحمل قِربة المَّاء، إضافة إلى طُول المسافة من الفُندق وصولاً إلى السّيق، والمرور به وبالوادي، ثمَّ صُعود الجبلِ الشَّاهق ذي التعرُّجات المُرهقة.

مع التعب الشَّديد وحلول المساء، لم يكن بالإمكان أن يصلَ الجميعُ أبعد من هضبةٍ منبسطةٍ يُسمّيها الأهالي "سطوح الجبل"، بحيث يُمكن رؤية ذلك المقام منها دون الاضطرار للصعود إليه، وهذا ما فعله الرَّحَّالة حينذاك تماماً، لذلك أخبر "صالح" الفريق بهذه المعلومة، وأنَّهم وصلوا المكان المقصود، فَبَدا الفرحُ على وجوههم، إذ إنَّ ذبح الجَدْي فوق تلك الهضبة سيوفّر عليهم الوقت والجُهد، بينما جلس هو غير بعيدٍ عنهم يتأمَّل مشهد المدينة البهيّ من ذلك العلوّ السامق، ويرتاح قليلاً من عناء الصُّعود المُهْلك.

فقط لو أنَّه صبر قليلاً بعد ذلك، فمن المؤكَّد أنَّه لن يكون في مثل هذا الوضع العصيب.

لكن لا مجال للنَّدم الآن، وهو يستذكر اللَّحظات القاسية، فقد حدث ما حدث وانتهى الأمر، وها هو ذا يئنُّ من آلامٍ شتَّى أصابت جَسده، ومن يدري ما قد ينتظره من الأخطار الخفيَّة بعد ذلك.

فكَّر بما مضى من حياته في لحظة مُحاسبة للنَّفس وربَّما النَّدم المُتأخّر، فقد تعوَّد من قبل على المُغامرة، وأصبح التَّهوُّر سِمةً تطبعُ حياته، فلا تكاد تأتي الفرصة لأيّ نوع من المغامرات، إلّا ويقوم بها دون حسبانٍ لما قد تنطوي عليه من الأخطار.

لو لمْ يجرِ الأمْرُ بتلك الطَّريقة في ذلك المساء، على ذلك السَّفح الصَّخري الذي يُثير في نفس الناظر إليه رُهاب السُّقوط إلى أسفل، ربَّما لن يكون الآن في وضع يسمحُ له باستذكار تفاصيله وصوره المُتلاحِقة، وهي تُهاجمه بشراسة.

بذل فريق التَّصوير جُهداً كبيراً حينها لاصطياد تلك اللَّقطات النَّادرة لذلك المُمثّل، وهو يقوم بذبح الجَدْي المَنْذور، الَّذي ظهر للجميع أنَّه وصل إلى حالةٍ من الإعياء والجُوع يُفضّل فيها الموت في تلك الهضبة الشَّاهقة، أو القفزَ منها فراراً إلى المجهول على البقاء لفترة أطولَ مُختنِقاً بقبضة حامله.

قام الممثّل بجزّ رقبةِ الجَدي بحماسٍ شديدٍ، كما لو أنَّه ينتظر تلك اللحظة منذ زمن طويل، فيما وقف "دليله" المُمثّل الآخر رافعاً يديه بالدعاء، ومتوجّهاً إلى المَقام الذي على قمَّة الجبل، كطريق سالك نحو السماء مُقلداً ما قاله البدوي في ذلك الوقت:

- **يا هارون.. تر انا نحن ذبحنا الجدي لوجهك. يا هارون احفظنا واعفّ عنّا. يا هارون تقبّل نيّتنا لأنّ ذبيحتنا ما هي سمينة.. يا هارون سهّل دروبنا.. والحمد لله ربّ العالمين.**

بدأ بعدها بتغطية الدم المراق بكومة من الحجارة، وعندها فقط شعر "صالح" بأنّ مُهمتّة قد انتهت تقريباً في ذلك المساء. ؛

ترك الجميع يجهزون الجدي للشَّيّ، وانسلَّ بهدوءٍ دون أن ينتبه له أحدٌ متوارياً عن الأنظار في الجهة الأخرى من السَّفح، فقد شعر برغبة عاجلة في تلبية "نداء الطَّبيعة"، وهذا تعبير مُوَاربٌ ولطيفٌ سمعه كثيراً من بعض أعضاء الفريق حين كانت تداهمُ أحدهم الرَّغبة بالتَّبوُّل دون حرج. بدا له الأمر طريفاً وهو يرشقُ الحِجارة في الأسفل بذلك السائل الساخن الخارج بقوّة من مثانته المُحتبِسة التي شعر بأنَّها تكاد أن تنفجر.

صحيحٌ أنَّ ما فعله بدا له شيئاً طفولياً ومتهوّراً لا ينبغي لمثله فِعله، لكنَّه راحَ يُبرّر لنفسه ذلك الفعل، ويجعله أمراً عادياً ليتخفَّف من وطأة تأنيب ضميره، إذ لا حمَّامات قريبةً أساساً يمكن أن يلجأ إليها هناك، وليس من أحد يمكن أن يراه في الجّهة التي اختارها بعيداً عن الآخرين، ولا شيء تحته بالطَّبع من البشر أو الحيوانات ليتضرَّر ممَّا فعل.

حين انتهى من نظرته إلى الأسفل، واسكتشاف الشَّقاوة الخامدة في أعماقه رفع رأسه باتّجاه الأفق الغربي، وتنهَّد طويلاً وقد هاله ذلك الجمال المُثير لقرصِ الشَّمسِ، وهو يغطس ببطءٍ ساحباً معه عباءة اللَّيل، ومُشكّلاً لوحةً فريدةً لبقايا الغيوم التي تلوَّنت ما بين الأحمر القاني والأصفر الذَّهبيّ، واشتبكت مع بقايا الضَّوءِ الواهن.

أحسّ حينها أنّ مثل هذه اللَّحظة الكونيَّة لن تتكرر مُجدَّداً بمثل هذا البهاء نفسِه وفي مثل هذا المكان بالذَّات. لهذا بدأ بتغيير موضعه قليلاً للقبض على ملامح السَّماء في دهشتها البدائيّة عبر عدسة هاتفه النَّقَّال، وفي تلك الثَّواني القليلة لذلك المَشهد الخُرافيّ المُغري للتأمّل فقد توازنَ جسده.

انزلقتْ قدمهُ اليُمنى أوَّلاً بما تحتها من الحَصى والحِجارة، فانثالَ معها التُّراب بقوَّة. لم يكن ثمَّة مجال لاستعادة توازنه، إذْ هوى مُتدحرجاً بجسده إلى الأسفل، فيما طارَ هاتفه من يده باتّجاه الوادي السحيق، وآخر ما وعاه ارتطام رأسه بشيءٍ ما ثمَّ الظَّلام الدَّامس.

حين بدأ بالصَّحو التَّدريجيّ وجد نفسه عالقاً في شبه حُفْرةٍ على أحد منحدرات ذلك الجبل، ولا يدري كم مرَّ عليه من الزمان وهو في هذه الحالة. حاول أن يتزحزح قليلاً لكنَّ الألم لم يكن يطاق، وهو يُهاجمه بضرواةٍ في مناطقّ عديدةٍ من جسده، ومن يدري فربَّما انكسرت بعض أطرافه أيضاً ولم يشعر بها بعد، فقد صارت حركته ثقيلة وأوجاعه هائلة!

"الحمدلله ما أزال حيَّاً.." كانت هذه الجملة أوّل ما جاء إلى خاطره حين بدأ يعي وضعه، فما دام أنَّه ما يزال عالقاً هنا فثمَّة أملٌ في بقائه حيَّاً، وبالتَّالي إمكانية إنقاذه، ومهما كان وضعه الآن فهو أفضل ألف مرَّة من هُموده النهائي جثَّة مُهشَّمة في ذلك القاع الموحش الذي بدا له مخيفاً، لا سيَّما أنّ قُطعان العتمة قد اجتاحت حينها خرائب المدينة بأكملها.

بقي فترةً من الوقت يحاول استيعاب تلك الصَّدمة المُروّعة.

جرَّب أن يصرخ لكنّ صوتَه خرج واهناً ومتقطّعاً، فيما تناهت إلى سمعه أصوات قادمة من الأعلى تنادي عليه، وبعضها بدا له آتياً من مكان بعيد.

لمحَ أيضاً إضاءات باهتةٍ لمصابيح وكشّافات ضوء تحاول جاهدة أن تُمشّط عتْمة الجبل بلا طائل.

حاول مَوْضَعَةَ جسدِه ببطء حتى لا يسقط من طرف الجُرْف مُجدَّداً فتكون نهايته، إذ ليس من مجال هناك إلّا غرْزَ نفسه داخل الحفرة، فقد شعر بها تنثال بترابٍ ناعم أسفل قدميه، فتفتح المجال له للولوج فيها بشكل أعمق، وتُجنّبه السقوط من الحافّة بشكل أكيد.

في تلك اللَّحظات الحرجة، اكتشف أهمّيَّة أن يكون للإنسان جسدٌ رياضيٌ قادر على احتمال الصّعاب، وليس من أجل التباهي والمخاطرة. وفيما هو يُحاول أن يتشبَّث بأيّ شيءٍ تستطيع يداه أن تصل إليه خوفاً من النُزول إلى الحُفْرة مُجدَّداً اكتشف أنَّ عمقها لا يكاد يُطاول جسده، وأنَّها تنفتحُ أكثر إلى الأعلى من الداخل. بدتْ له باباً لكهفٍ مهجورٍ، ربَّما لم يصله أحدٌ منذ زمن طويل، أو ربَّما نافذة تهويةٍ لقبوٍ سرّيٍّ، إذ من الصعب التأكُّد من أيّ شيءٍ وَسْط كلّ هذه العتمة.

حلَّ اللَّيلُ تماماً، وهو يُحاول المحافظة قدر الإمكان على وضعيَّةٍ واحدةٍ، فالآلام الّتي تستفزّه بدتْ لا تُطاق. من المؤكد أنَّ يده اليُسرى قد أُصيبت بكسرٍ ما أو رضّات قويَّة، هذا عَدَا عن الضَّربة التي طالت رأسه، وجعلته يغوصُ في غيبوبة لا يدري كم من الوقت دامت!

في محاولته المُرهِقة لتفقُّد وجهه، أحسَّ بالدَّم يُلطّخ يديه، وشعر أيضاً بأنَّ الوجع القادم من ساقه اليُمنى لا يُطاق، ولا يكاد يستطيع تحريكها. مع تقدّم الليل وخفوت الأصوات التي كانت تُناديه، وتلاشي الأضواء شيئاً فشيئاً راح يغرق في نومٍ متقطّعٍ أو ربَّما غيبوبة جديدة، يفيق منها على ألم هنا أو هناك من جسده الذي بلغ حالةً قُصوى من الإعياء حدَّ الانهيار.

تناوشتهُ حينها أَسِنَّةُ اليأس، وخُيّل إليه بأنَّه سيبقى على هذه الحالة، يُجاهدُ نفسه حتى بزوغ الفجر، فحتّى لو تمَّ إخبار "الدّفاع المدنيّ" وجاؤوا لانقاذه فإنّ قدومهم سيأخذُ وقتاً، كما أنّه من الصعب البحث في مثل هذا الجبل الوعر أثناء الليل، لهذا استسلم إلى أنَّ الصباح لا بدَّ سيأتي معه ببصيصٍ من الأمل.

لأوَّل مرَّة يختبر مثل هذه المُواجهة المُباشرة مع الموت. صحيحٌ أنَّه اقترف من قبل بعض الحوادث أثناء قيادته سيّارته لشدّة حماسه واندفاعه، بل وسقط أيضاً عدّة مرّات عن الدراجة الهوائية، لكن لا مُقارنة أبداً بين ما سبق، وبين هذه التجربة التي يعيشها الآن بكلّ آلامها.

فكَّر لوهْلةٍ حين بدأت الأسئلة تتناسل في رأسه، والاحتمالات تتكاثفُ من حوله لفهم ما جرى:

أيَّةُ أيادٍ خفيَّة تلك التي دفعتْني في تلك اللَّحظة؟

ربَّما أكون قد ارتكبت جُرْماً أستحقُّ عليه العقاب!

أو قمت بتدنيس هذا المكان المُقدَّس، فربَّما يرقدُ أحدُ الصَّالحين هنا، وأستفْززْتُ أرواح حُرَّاس مَقامه الطَّاهرين.

ربَّما، من يدري، فالجوُّ كما شعرتُ يَعْبَقُ بهالةٍ من الرُّوحانيَّة الكثيفة في هذا الجبل الشَّاهق، الأكثر قرباً من السَّماء.

أتذكرُ أنَّ أمّي كانت تُحذّرنا ونحن صِغار ألَّا نبُول في شُقوق الأرض، وألَّا نرمي قِطَّاً أسودَ بحجرٍ، ولا ننظر في المِرآة أثناء اللّيل، لأنَّ ذلك قد يُعرضنا للأذى، ويفتح علينا أبواب الشياطين!

بدأ الجُوعُ ينهشُ مَعِدته الخاوية، ففي أثناء تقلُّب الجَدْي الذبيح فوق نار الحطب الهادئة، كان يتأمَّل قُرص الشمس بهدوء واقعاً تحت سِحره، وبعدها هبطتْ عليه المصيبة دفعةً واحدة، وها هو الآن وحيداً في أقصى درجات العزلة، وجائعاً، وعطشاً، فيما الآلام تتكالبُ على كلّ خليّة في جسده، والبردُ يجتاحه من كلّ جانب، أمَّا العتمة بكلّ ما فيها من الخفايا المُتحفّزة، فلم يكن لها نصيب من تفكيره الذي تعطَّل تماماً، بفعل كلّ هذه الكوارث، التي هلَّت عليه مُجتمعةً، لا سيَّما أنَّ نصف جسده السُفْليّ مدفونٌ في كهفٍ يعلم الله وحده ما يَعجُّ فيه من النواهش، والأخطار الخفيَّة.

حين وصل إلى تلك النُقطة القُصوى من الخذلان، والوِحْدة، والجوع، والألم، والخوف، نادى الله في عَليائه أنْ يُخفّف عنّه شيئاً من أوجاعِه وأن يُنقذه مما فيه. تذكر أيضاً ذلك البدويّ الذي رافق "بيركهارت" قبل سنواتٍ بعيدةٍ، وهو يدعو بعفويّةٍ طاغيةٍ صاحب هذا المقام القريب أنْ يحفظه ويُسهّل دربَه، كأنَّه أدركَ أنَّ الطريق إلى الله يمرُّ عبر الصَّالحين على هذه الأرضْ.

جاء إلى خاطره أنَّ خطواتٍ قليلة ربَّما تفصله عن المَقام، وتمنَّى في داخله أن تُسانده روح صاحبه المُحلّقة في محنته سواء كانَ نبيَّ الله "هارون" كما يعتقد العامَّة هنا أو غيره، فليس ثمَّة إثباتاتٌ دقيقةٌ في صِدْقيَّة مثل هذه المواقع، الَّتي يتدخَّل في صياغة تاريخها رجالُ الدّين والسَلاطين والعامَّة وحتَّى الغُزاة، لكن من المُؤكَّد أنَّ لهذه المدينة هيبةً وقداسةً لا تَخفى على من يزورها.

لا يدري كيف مرّت في أعماقه حينها صُورة "هارون" وهو يقف بقوَّة مع أخيه "موسى" أمام "فِرعون" الجبَّار، يدعوانه معاً إلى الله، لكن "فرعون" حينئذٍ كان مُمتلئاً بذاته المُتضخّمة وتائهاً في ملكوته الخاص، ولا يرى غيره في الكون ظانّاً أنَّه "ربُّهم الأعلى"، ثم انبثقَ موقفٌ آخر من ذاكرته حين هبط "موسى" من الجبل بعد اعتكاف أربعين يوماً وبيده ألواح "التوراة"، إذ فوجئ بقومه وقد فُتنوا من بعده بعجل السَّامريّ الذهبيّ، الذي كان يخور كأيّ عجلٍ حيّ، فاشتدَّ غضبه، ولم يجد أحداً أمامه يلومه غير أخيه، فأخذ بلحيته يشدُّها، ورأسه يجرُّه إليه:

- **أفعصيت أمري؟!**

فيما هارون يرجوه محاولاً أن يُهدئ من روعه، ويشرح له ما جرى بعده، حتى يَسكت عنه الغضب:

- **يَا ابْنَ أُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي..ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي، وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي، فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ..!**

هل جاءت هذه الذّكريات من أيَّام المرحلة الدّراسيَّة وحصص مُعلّم الدّين الذي كان يتفنَّن في شرح الآيات مع محاولةَ تمثيلها لهم لتسهيل فهمها؟ أم أنَّه شهد ذلك بنفسه ذات حياةٍ بائدةٍ وراقب ذلك المشهدَ بكلّ حذافيره؟

ذلك أمر لم يستوعبه حينئذٍ وهو يتلوَّى في وضعه الحرج ذاك، مُعلَّقاً بين الموت والحياة، والنَّوم والصَّحو، والألم والأمل.

مع انبلاج الفجر بدأ في محاولة اكتشاف ما حوله. أدرك أنَّه في جوف الكَّهف، فبقعةُ الضَّوء تأتي من الفتحة العُلْويَّة، التي لا تكاد تتَّسع لجسده فيما لو تمكّن من الوصول إليها.

من الواضح أنَّه قد انزلق إلى الداخل أثناء الَّليل، فانغلقتْ تلك الفتحة جُزئيّاً بالتراب والحجارة، بعد أن كانت مسنودةً بظهره. شعر بالأمل يتضاءل فكيف لأحدٍ أن يراه، وهو في هذه الحالة، لا بل كيف يُمكن أن ينتبه إلى الشقّ المفتوح نفسه؟!

مع ذلك لم يفقد بصيص الأمل القادم من شعاع الشَّمس الذي بدأ يُظْهر ما حوله، ويمنح جسده بعض الدّفءِ، كاشفاً شيئاً من غُموض المكان الذي قاده مصيره الخفيّ إلى السقوط فيه.

انتبه إلى أنَّ الكهف ينفتح لمسافات بعيدة في الداخل كما يبدو، وربَّما يكون ما دخل منه فتحة تهوية وليس باباً، إذ لم يحدثه أحدٌ من الأدلَّاء الذين التقاهم من قبل أنَّ ثمة كهفاً في هذا الجبل أصلاً.

بدأ يراقب بشغفٍ حركة الشقّ الضوئيّ، الذي يُشبه المُستطيل الدّقيق الذي تُشكّله أشعَّة الشمس، وهو يمسح بعض عتمة الكهف من الداخل بالتدريج بقدر ما يصل إليه. حاول أيضاً أن يدقّق بنظره ليرى أيّ شيءٍ هناك. لفت انتباهه انعكاس الضوءِ على ما يُشبه الزُجاجة الملَّونة، أو ربَّما قطعة من الفخَّار الَّلامع. قدَّر أيضاً أن تكون قطعةً من البلاستيك قد سقطت من الأعلى ودخلت هناك، فالكثير من السيَّاح يأتون يومياً إلى هذا الجبل، وربَّما رمى بعضهم شيئاً من المخلفات هنا أو هناك.

زحفَ باتّجاه القطعة الَّلامعة قبل أن تُغادرها أشعَّة الشَّمس، كمن يتشبَّث بأيّ شيء واهماً، لعلَّه يعثر على ما يُمكن أن يسدَّ رمقه، أو يروي عطشه بعد أن كادت طاقته على الاحتمال تصل إلى الحضيض.

حين تحسَّس بأصابعه المُرتجفة تلك القطعة الَّلامعة بدتْ له مُكوَّرةً، وغاطسةً في التُراب الطّينيّ، فبدأ بالنبش حولها، وزاد إصراره على إخراجها من مكمنها عبر إزالة التُراب المُحيط بها، ومع مُثابرته المُرهِقة راحت تتكشَّف له حتى قبضَ عليها كاملةً، فبانت له جرَّةً صغيرةً من الفخَّار ذات عنق ومُزجَّجة بالألوان. اكتشفَ بأنَّ هناك الكثير من هذه الجِرار المُتشابهة متجاورةً معاً هناك، وتحتاجُ إلى من يزيح عنها الكمَّ الهائل من التُّراب، وربَّما ركام القرون الطويلة.

بدأ يزحف باتجاه المزيد من الضوء لعلَّه يستطيع أن يتبيَّن ملامحها، لكنَّ قُواه الخائرة خذلته، فاكتفى بمكان قريب منها. تحسسها بباطن يده فشعر بها ثقيلةً بعض الشَّيء، ومُغلقة من الأعلى بختمٍ طينيّ لم يستطع رؤية ما عليه من النُّقوش بوضوح.

كان ينتظر أيَّةّ بادرةِ أملٍ لوصول فريق الإنقاذ إليه، هذا إن حالفه حظُّه، واستطاعوا تقدير المكان الذي هوى إليه أصلاً، ومع ازدياد حرارة الشَّمس، ووصول وهجها إلى الكهفِ خُيّل إليه أنَّ هناك أصواتاً متفرّقةً تنادي عليه. بدا له أنَّهم يبحثون عنه في الأسفل، إذ ربَّما ظنُّوا أنَّه قد هوى إلى قاع الوادي، وبالتالي بَدا أكثرهم يبحث عن جُثَّته الهامدة هناك، أو في أحسن الأحوال جسده المُهشَّم مع بقايا نُسْغِ الحياة في عروقه!

بدأ الفضول يُهيمن عليه لمعرفة ما بداخل الجرَّة التي بين يديه. قدَّرَ أن تكون فيها بعض الخمور المُعتّقة، أو ربّما الحبوب المحفوظة، وتفاءل أيضاً بوجود التّبر، لكن ما فائدة أيّ شيء هنا إن لم يتمكن من الصعود أكثر إلى الأعلى والصراخ، أو حتى التلويح لعلَّ أحداً يلمحه.

ركّز على عنق الجرّة المُغلقة، وراح يدقُّها بحجر. سرعان ما انكسرت، وسالت منها مادَّةٌ كثيفةٌ ولزجةٌ بعض الشيء ولا رائحة لها. فكَّر أنْ يتذوَّق بطرف إصبعه لحسةً منها، فحالته لا تحتمل الانتظار.

بَدَا المَذاق حُلواً، وأقرب ما يكون إلى العسل، لكنَّ لذَّته مُدوّخة.

عجب كيف وصلت هذه الجرار إلى هذا المكان القصيّ؟

تساءل في نفسه إن كانت من مُخلفات بعض الأهالي قبل سنوات طويلة، أم من محفوظات حامية العثمانيين قبلهم؟ من يدري فربَّما كان هذا الجبل مخبأً للصوص فارّين، أو مكاناً سريّاً لثوّار البَدو الذين طاردوا الجنود الأتراك، وكان عليهم أن يحتفظوا بما يُمكنهم من العيش بعيداً عن الأنظار فترة من الوقت.

بدتْ له الاحتمالات مفتوحةً، ولا تنتهي لتفسير وجود هذه الجرار هنا، لكنَّ خياله الجامح لم يقُدْه إلى التَّفكير أبداً بأنّها قد تعود إلى زمنٍ بعيدٍ كانت فيه هذه المدينة تعجّ بالحياة، ومركزاً حيويَّاً على طريق القوافل لأعرق الحضارات، حيث يجلب التجَّارُ معهم من كلّ مكان قوارير النبيذِ والعسلِ، وأنَّه سيكون أوّل من يكتشفها، ربَّما بالصدفة نفسها التي اكتشف فيها الفتى السّويسريّ المُندفع ما تبقَّى من هذه المدينة الساحرة، لكن مع فارق بعض الكُسور والرضوض ودُوار بدأ يجتاحه، فيما يُحاول تهدئة القطط الَّتي تتلوَّى في معدته بقطرات من ذلك المزيج السحريّ اللّزج.

بدأ بالزحف مثل سلحفاةٍ هرمةٍ، نحو الشقّ الضوئيّ فوق رأسه، ساعياً لتوسيعه، والخروج منه إلى الفضاء المشمس.

وما بين الأصوات التي تبحث عنّه في الخارج، والجِرار المحفوظة في هذا الكهف السّرّيّ التي تناديه كي يفتضَّ أختامها، شعر بوشيشٍ يتصاعد في رأسه، فيما راحت المشاهد تغيمُ أمامه.

خُيّل إليه أنَّه رأى فارساً قادماً من أعماق الكهف تجاوزه بحصانه باتّجاه ذلك الشقّ الضوئيذ الدقيق للكهف، وقفز إلى الخارج دون أيّ تردّد.

ثم أحسّ بأنّ الكهف قد اتّسع كثيراً، وانفتح على فضاءٍ بلا حدود، حيث وجد نفسه فجأةً وسط معركة تتطايرُ فيها الرؤوس، وتُقطَّع فيها الأطراف. كانت حرباً تكشف عن ذلك التوحُّش الذي وصلته البشريَّة، وهو هناك بينهم، يحاول أن ينجو بجلده من هذه المجزرة.

ما بين تلك المشاهد، التي صارت تُداهمه بشراسة، والصَّحو المُباغت، وهو يزحف نحو الشقّ الضوئي ليغادر هذه الأهوال، تغيَّرَ مجرى حياته مرَّةً واحدةً وإلى الأبدْ.

رُؤى مُشظَّاة لمُريدٍ حائرٍ

مرَّت شهورٌ قليلة بعد تلك اللَّيلة الحافلة بالآلام، إذ بدأ جسده يستعيدُ عافيته من آثار الرُّضوض والكسور والجروح الَّتي انقضَّت عليه دفعة واحدة، غير أنَّ نفسه المُضطربة تحتاج إلى أزمانٍ مديدةٍ كي تشفى، فقد بدأت الصُّور الشَّبحيَّة تتكاثف أمام عينيه بلا استئذان بين الحين والآخر، ثم تتحوّل إلى حقائق جلّية، يراها ويسمع أحداثها، بل وينغمس في تفاصيلها بكامل حواسّه.

لم يكن النَّهار قد انتصف في ذلك اليوم، حين سمع هديراً بَدَا له بعيداً، ثم أصبح يقوى بشدَّة في رأسه. بعدها لمح طائرة "هيلوكبتر" تحوم حول الجبل، ويبدو أنّ طاقم الإنقاذ فيها قد استطاع تعيين مكانه عبر النَّواظير المُقرّبة، بعد أن تمكَّن أخيراً من الإطلالة برأسه من تلك الفتحة ورفع يده.

لم يمرَّ وقتٌ طويلٌ حتى تدلَّى اثنان من المُنْقذين، ومعهم نَقّالة معدنية مُشبَّكة تشبه السَّرير، وسُرعان ما تمَّ الوصول إليه ورفعه من الجُرف ووضعه فوق النَّقَّالة، ثم تحرَّكت الطَّائرة بحبالها المُدلَّاة إلى أقرب منطقة سهليَّة تستطيع فيها إنزاله، إذ كان هناك طاقمٌ آخر من المُسعفين ينتظره على الأرض.

ظهر ذاهلاً عن نفسه بجسدٍ منهكٍ يلفُّه الدوار، وبقايا دماء تغطّي وجهه، ولا يكاد يستوعب ما يجري له عدا عن اضطراب في الرؤية من أثر الصُّور المُتلاحقة في الكهف، وتعب ليلة كاملة دون نوم مع بردها اللاسع. ربّما أيضاً من أثر ما فعلته به تلك القطرات الذَّهبيَّة ذات المذاق المُدوّخ.

لمحَ وهو في تلك الحالة بعض أعضاء فريق التصوير، وهم يُلوّحون له فرحين بالعثور عليه سالماً. وبعضهم يُصوّر تلك اللقطات. بعد الاسعافات الأوَّليَّة المُستعجلة تمَّ وضعه داخل الطَّائرة ثم سُرعان ما حلَّقت به من جديد، لنقله بشكل عاجلٍ إلى أحد المُستشفيات الكبرى في العاصمة.

أمضى نحو شهر أوَّلاً تحت الرعاية المُكثَّفة في المستشفى، وقد تكاثر الزُّوار القادمون إليه، بعضهم من الأهل والأقرباء، أو من الزُّملاء والأصدقاء، إضافة إلى فريق التلفزة، الذي حضر خلال الأيام الأولى لعلاجه ثمّ غادر بعدها عائداً إلى بريطانيا.

أعجبه حسُّ الدُّعابة الذي كان يتمتَّع به "غاريث" في تلك الزيارة، وهو يُشدّد على ضرورة شفائه التَّام سريعاً، كي يُشارك معهم من جديد في الفيلم المقترح، الذي سيتمُّ تصويره بعد أشهر قريبة عن السيّدة النّيوزلنديّة "البَدويَّة"..!

شعرَ بحماس المُخرج الجارف لهذا الفيلم لأمرٍ في نفسه كما يظهر، ربَّما أكثر مما فعلَ وهو يرصد رحلة "بيركهارت"، فربَّما يعود الأمر إلى تقديراته الخاصَّة لنجاح مثل هذه الموضوعات عند المشاهدين في المجتمع الغربي. أعلمهُ أيضاً بمزيد من الفكاهة أنَّه سيتولَّى بنفسه مُراقبة كلّ تحرّكاته هذه المرَّة، ويتأكَّد ألَّا يُصاب بأيّ أذى مُجدَّداً، وأنَّه سيقومُ بحفلةِ شواءٍ لخروفٍ سمينٍ تعويضاً عن لحم الجَدْي الهزيل الذي فاته في المرَّة الماضية، وقال جملته الأخير مقهقهاً.

بدا له "غاريث" صادقاً ومتأسّفاً لما جرى له، كأنّه من تسبّب شخصيَّاً في تلك الحادثة. حاول أن يضفي جوَّاً من المرح لرفع معنويَّات زميله المُثقل قدمُه وذراعه بالجِبْسِ، إضافة إلى بعض اللَّفائف على رأسه من أثر السُّقوط، وأسلاك الأجهزة التي ترصدُ نبضه، وتتابع حالته أوَّلاً بأوَّل.

أبلغهُ أيضاً دون مواربة أنَّ المحطَّة التَّلفزيَّة ستتكفَّل بكلّ تكاليف علاجه، لأنَّها إصابة عملٍ ضمن فريق التصوير، وأنَّ حالته مُستقرَّة، وينتظر أن يراه قريباً وقد تشافى تماماً.

خلال وجوده في المستشفى أضحت حالات الصَّحو الحادّ والمُباغت للذاكرة تقوده بين الحين والآخر إلى تبدُّلات نفسيَّة عجيبة، واضطرابات، ورؤىً مُهشَّمة تظهر بين الحين والآخر، فتشوّش رتابة يومه، وتجعله في حيرةٍ من أمره. في الحقيقة فقد احتفظ بهذا السرّ لنفسه، لعلَّه يتشافى أوَّلاً من مصائب الجسد، ويعود لاحقاً لاستكشاف تلك الأعطاب التي حدثت في أعماقه، وبدأت تنهش صحوه، وتقضم سَكينة أيَّامه.

لحسن حظّه أنَّه لم يَطَّلِع عليها أحدٌ، كما لم ينتبه المُنقذون الذين هبطوا بالحبال إلى أنَّه سقط في كهفٍ، فقد كان جسده يغطّي تلك الفتحة الَّتي يربض تحتها عالمٌ مسكونٌ بالغموض، وسُرعان ما انثال التُّراب بعد خروجه، وردم جزءًا كبيراً منها، كما أنَّ همَّ المُنقذين في تلك اللَّحظات الحرِجة سحبُه بهدوء، ووضعه على النَّقّالة، والحرص البالغ على ألَّا يسقط من جديد، أو تتضاعف شدَّة الإصابات، ولا أن يهوِي أيُّ واحد منهم أيضاً في ذلك الوادي السحيق رغم خبراتهم الاحترافيّة، وهم يتدلُّون بأجسادهم من "الهيلوكبتر" التي كانت تحاول قدر الإمكان التوقُّف في الهواء، لكنَّ صوت مُحركها الهادر، والتيَّارات الهوائيَّة العاتية المُنبعثة من مرواحها الضَّخمة جعلت الموقفَ بأكمله عَصيباً وبالغ الدقَّة.

خلال الأيَّام الأولى له في المستشفى حضر رجلا أمنٍ للتَّحقيق بحادثة سقوطه، وللتَّأكُّد من أنَّ الأمر لم يكن مُدبَّراً، أو يقف خلفه عملٌ جنائيٌّ. أمطراه بالكثير من الأسئلة بعد أن تأكَّدا من وعيه التَّام:

- **هل كان أحدٌ قربك حين سقطتَ؟**
- **هل شربت أيَّ نوع من الكحول قبل سقوطك؟**
- **هل تُعاني من الخوف تجاه الأماكن العالية؟**

- **هل لديك خلافاتٌ مع أحدٍ من عناصر الفريق؟**

- **هل فقدتَ بعض أغراضك أو شيئاً من المال بعد السُّقوط؟**

- **هل أنت مُرخَّص للعمل كدليلٍ سياحيّ؟**

مع كلّ سؤال من هذه الأسئلة التي تُشبه ضربات متواصلةٍ على رأسه، تشوَّشتْ الصُور أمامه مجدَّداً، واختفى رجلا الأمن من أمامه. أدركَ فجأةً أنَّه في مكان آخر قديمٍ تفوحُ منه الرَّوائح النَّتنة. قبوٌ حجريٌ مُزدحم بالرُّطوبة والعفن والعتمة والأجساد المتراصَّة لكائناتٍ كانت في يوم من الأيام بشريَّة، وحوَّلها هذا المكان القميءُ إلى أشباحٍ متطامنة. كأنَّ الزمان عاد الفَ سنة إلى الوراء.

انتبه لنفسه ورأى أنَّه مرميٌ في إحدى الزوايا، فيما السلاسل تُثقل قدميه، بينما وقف أمامه شبحٌ بجسدٍ ضخم، معصوب الرأس والوجه، ولا تظهر منه غير عينين ناريَّتين، وقد بدأ يَسوطه على سائر جسده دون هوادة، فيما هو يصرخ متلوّياً من الألم.

- **أخبرنا بكلّ ما تعرف عن أفكار هذا الزّنديق.**

- **ومتى تلتقون؟**

- **وإلى ماذا تسعون؟**

- **ومن هم أعضاء مجموعتكم السّرّيّة؟**

- **ومن يدعمها من رجال الحاشية أو من خارجها؟**

- **ماذا تقول في مولانا الخليفة أمير المؤمنين وحافظ حِمى الدّين؟**

جاء رجل آخر بَدا أنَّه المسؤول الأوَّل في هذا المكان، مدَّ وجهه قرب أذنه حتى كادت لحيته الشعثاء أن تُخرمش وجهه. خرجت كلماته الهامسة والمُهدّدة، المُختلطة برائحة فمه الكريهة:

- **غداً حين نصلب شيخك المارق سيأتي دورك.. لن نُبقي أحداً منكم في ديارنا أيُّها القرامطة الكفرة.**

أشار بعدها لبقية الحرّاس الغِلاظ أن يُواصلوا التَّعذيب. انتبه حينها لأجساد الآخرين من حوله المُسربلين بالسَّلاسل، وهم يُساطون بلا أدنى رحمة. بدأ صراخه يتعالى من فرط الألم، ومن الاستنكار لكلّ التُّهم التي كِيلتْ له.

بعدها غاب عن وعيه، ثمَّ عاد يستوعب وضعه الحالي بالتَّدريج، وأنَّه في غرفة المُستشفى.

أدرك بأنَّ رجلي الأمن قد غادرا الغُرفة، وتحلَّق الأطباءُ من حوله لفهم هذا الهَذيان الذي أصابه، وأدخله في نوبةٍ من التَّعرُّق، والكلام غير المفهوم، كما لو أنَّ كابوساً فاجأهُ أثناءَ نومٍ عميق.

هذه هي المرَّة الثانية التي تُداهمه مثل هذه الحالة، حيث يختلطُ عليه الأمر، ويدخل في تشنَّجات مُحيّرة، كما لو أنَّه عاشَ حيواتٍ كثيرة من قبل، وها هي بعض أحوالها تحضر في حياته هذه بكلّ سِطوة، ودون أيّ استئذان.

راح يتساءل في داخله: أيُّ عصر هذا الذي أفسد عليه حاضره؟ قرامطة، وزنادقة، وجلادون، وزنازين.

صورٌ قاسية أحسَّ بوقعها عليه تماماً، لا هي كابوس ممَّا عهد من المَنامات من قبل، ولا هي حياة حقيقيّة في هذا الزمان والمكان، وليس الأمر بعد كلّ ذلك بالتَّخيُّل. لا بدَّ من حلّ لهذه الفواجع الصادمة، التي أصبحت تداهمه منذ سقط في ذلك الكهف، وتذوَّق من السائل الدَّبق الذي كانت تفيض به الجِرار.

حَيواتٌ تُطلُّ برؤوسِها

بعد عمل جبيرةٍ لكسر في المِرفق الأيسر، وآخر في السَّاق الأيمن، وبعض الغُرز لجرحٍ في الرَّأس، وعلاج الكثير من الكدمات للعضلات، واستقرار حالته خرج من المستشفى. لم يكن ثمَّة شيء غير طبيعيّ قد اتَّضح للأطباء من خلال تصوير الدماغ، فكلُّ شيء بدا سليماً، ولم تظهر أيَّة كسور، أو ارتجاجات في الجُمجمة.

نصحهُ الأطبَّاء بقضاء فترة نقاهةٍ، فكسْرُ السَّاق يحتاج إلى وقتٍ طويلٍ كي يلتئم، لهذا أمضى جُلَّ وقته في مع أهله في "الزَّرقاء" دون أن يتمكَّن من المُغادرة. بدت له المُدَّة طويلة، وتبعث على الكآبة، غير أنَّ خروجه من تلك الحادثة بمثل هذه الإصابات فقط، يبدو معجزةً لمن شاهد ذلك الجبل وحوافّه القاتلة، ويظهر أنَّ حِرصه على ممارسة تمارين اللَّياقة البدنيَّة في عدد من الأندية من قبل، واعتياده على تحمّل بعض ظروف الحياة القاسية قد خفَّف من شدَّة إصابته.

بَدَا حضور أمّه المُتواصل في مرضه كافياً أن يمنحنه شيئاً من الدفء وبعض الأمل، وأن يُسرّع في شفائه. صحيحٌ أنّ بيتهم ظلّ في الماضي مفتوحاً على الهواء العليل، والمنظر البديع حين كان لا يزال "نهر الزَّرقاء" جارياً ونقيّاً، لكنّ كلَّ شيء قد تغيَّر اليوم، حيث أصبحتْ المنطقة موئلاً للبيوت المتراصَّة، والعمارات الَّتي تحجز الضَّوء، وتتقاسم مع السُّكَّان حتى ذرَّات الأكسجين التي يتنفّسُونها، لا سيَّما مع العدد الكبير من الوافدين من كلّ مكان، حتَّى إنَّ تسميتها بمدينة العمال والجُنود أصبحت قديمة من كثرة المهاجرين إليها من أجناسٍ ومهنٍ ووظائف شتَّى، كما أنَّ النهرَ نفسه، الذي كان الأهالي فيما مضى يسبحون فيه، بل ويصطادون السمك أيضاً – كما أخبره

والده ذات يوم - غَدا سيلاً صغيراً، ومكرهةً صحيَّةً، لكثرة ما يُلقى فيه من القاذورات، وتصريفات البواليع، ومُخلَّفات المصانع الكيماوية، التي تناسلتْ على جانبيه مثل الفطريَّات..!

ما يزال يذكر حكاياتِ والده الَّذي لم يُطلْ البقاء في هذا العالم، وهو يُحدّثه عن رحلته إلى هذه المدينة، حينما أتَاها أوَّل مرَّة، بدوياً أعزبَ، بداية الستّينات قادماً من "المفرق" المدينة الصَّحْراويَّة ليعمل في "مِصفاة البترول" النَّاشئة حديثاً حينذاك.

قال له مرَّة إنَّ "الزَرقاء" كانت منطقةً هادئةً في نهايات القرن التَّاسع عشر، لا شيء فيها غير النَّهر والأشجار الكثيفة على جانبيه، مع تواجد بعض البَدو الرُحَّل بين الحين والآخر، ومع بِداية القرن العشرين شهدتْ قدوم المُهاجرين "الشّيشان" من بلاد القُوقاز، حيث أسَّسوا نواةَ المدينة، واشتغلوا بالزّراعة، ثم سُرعان ما تضاعفت أعداد القاطنين مع إنشاء المُعسكرات للجيش العربيّ، قرب سكَّة الحديد، في منتصف العشرينات، واجتذاب عائلات أفراد الجيش، وبعض عشائر "بَني حَسن"، لكن مع وصول عدد من العائلات الشَّاميَّة الَّتي عملت في التجارة، وحدوث نكبة فلسطين في العام 1948، شهدت المَدينة طفرةً سُكانيةً واضحةً، تَعزَّزت مع النُزوح الفِلسطينيّ في العام 1967. فازدحمت بالنَّاس الذين يُشكّلون اليوم فُسيفساء متآلفة رغم قدومهم من كلّ صوبْ.

في عزلته القسريّة تلك، شعرَ "صالح" بتشظّيه إلى ثلاث حيواتٍ في الآنِ نفسهِ، فقد انشغلَ في الحياة الأولى بالقراءة والجلوس طويلاً مع والدته وبقيّة العائلة على غير عادته، مع زيارات المُجاملة والاطمئنان على صحَّته بين الحين والآخر لعدد من أصدقائه القليلين جدَّاً، وما تبقّى من زملاء المدرسة، وأيضاً بعض الجيران والأقرباء، كما شعر بثقل وطأة المُجاملات الاجتماعيّة لتفرّغه للجلوس أمامهم برجلٍ مُعطَّلةٍ ومثقلةٍ بالجِبس، والظهور

أمامهم كمصدرٍ للشفقةِ أو ربَّما التندُّر ، وهو يُعيد لهم حكاية ما جرى معه، بالتَّفاصيل المُرهقة، وبنُسخٍ مُكرَّرة، أو مَزيدة ومُنقّحة.

أمَّا حياته الثَّانية هناك فقد بدتْ له "افتراضية" إذْ يقضيها غالباً بِرفقة حاسوبه النقَّال، حيث يتبادل فيها الرسائل الالكترونيَّة، أو الدردشة والتَّعليقات عبر موقع "فيس بوك" لساعات طويلة، إضافة إلى توثيق علاقته مع "غاريث"، الذي كشف له أنَّ معنى اسمه الويلزي يُحيل إلى النُبل والفُروسية، وفي الحقيقة اكتشفَ فيه صديقاً رائعاً يحرص على استمرار التواصل معه، والسؤال الدَّائم عن أحواله، ويطمحُ إذا تشافى تماماً أن يعود إلى العمل مع فريقه كما وعده.

بدا واضحاً له أنَّه يشعر بتأنيب الضَّمير بعد تلك الحادثة، كما لو أنَّه هو الذي أسقطه، وأيضاً بالمسؤولية الأخلاقية كقائدٍ لفريق العمل عن ضرورة تشافيه بشكلٍ كاملٍ ليعود إلى حياته الطبيعيّة، لهذا ظلَّ يتفقَّدُ تفاصيله الصحيَّة، ويسأله عن إمكانية العمل معاً مُجدَّداً لإنجاز الفيلم الوثائقي المنتظر، الذي سيرصد فيه حياة تلك المرأة النيوزلنديّة التي تحوَّلت إلى بدويَّة في كُهوف البَتْراء. فمثل هذا الموضوع بالنّسبة له يمكن أن يكون مُدهشاً للمشاهدين، خصوصاً في المُجتمع الأوروبيّ.

أمّا الحياة الثالثة فتبدو له خيالية تماماً، إذ تُداهم مسيرته اليوميَّة الاعتياديَّة حالات أخرى تبدو قادمةً من ذكريات سحيقة لأجداده، تنشَّطتْ أحداثها في أعماقه فجأةً، أو حيوات سابقة عاشها في تجسُّداتٍ قبل قرون بعيدة، وهذا هالأمر إضافة إلى ما جرى من رؤى في ذلك الكهف ظلَّ من أسراره الخاصَّة الَّتي لم يُطلعْ أحداً عليها، أو ربَّما لم يجدْ بعدُ من يمكن أن يثقَ به، ويخبره عنها دون أن يسخرَ منه، أو يفكّر بأنَّ ذلك من بعض شطحاتِه وخيالِه الجامح.

ربَّما قاده هذا الأمر إلى المزيدِ من القلقِ والتساؤلاتِ عمَّا يُمكن أن يحدث معه، لهذا راح يقرأ عن مثل هذه الموضوعات بكلّ هدوء وتأمّل، ويبحث مستفسراً إن كان هناك من يؤمن بإمكانيَّة عيش الإنسان حيوات سابقة بأجساد أخرى قبل حياته الحاليَّة؟

بالنسبة له قد يكون ذلك جرى تعبيراً عن حالة الاضطراب الَّتي انتابته نتيجة تلك الضَّربة التي أصابت رأسه، أو ربَّما من أَثر ذلك المزيج العسليّ الذي تذوَّقه. ورغم أنَّ التَّداخل بين الحيوات كان مُتباعداً، إلَّا أنَّه خاف أنْ يعاني من اضطرابٍ عقليٍ يُشوّش عليه حياته الاعتياديَّة، لهذا أحسَّ أنَّ من أولوياته بعد معالجة إصاباته الجسديَّة أن يلجأ إلى معالجة اضطراباته الأخرى قبل أن تتفاقم الحالة.

راح يتأمَّل عميقاً في مسارات أيَّامه، محاولاً أن يجد صيغة للخلاص ممَّا يُعانيه بشرط ألّا يعرف أحدٌ بالأمر، فالمجتمع يستطيع أن يُحوّل "الهمسة" إلى فضيحةٍ، وقادر على أن يلوك سمعة أيّ شخص عند أدنى ملابسة، ودون أيّ رحمة!

غدتْ الحادثة نفسها محطةً مُهمّةً في حياته، فهذه هي المرَّة الأولى التي يُشارف فيها على المَوت بشكل جدّيّ، وكلُّ ما خبره من قبل من الأحداث البسيطة، لا يمكن أن يرقى إلى مثل هذه التجربة المُؤلمة، لذا وجد نفسه يتأمَّل ما مضى من حياته، وغَدَا هادئاً في ردود أفعاله على غير ما اعتاد عليه، حتى إنَّ أمَّه لاحظت تبدُّلاته المُبشّرة تلك، ودعت له بالخير، وأن يجد "بنت الحلال" قريباً كي يستقر، لكنَّه راحَ يتامَّل عبر حيواته المُتوازية كلّها سؤال الموتِ والحياة بشكلٍ عميقٍ، إضافة إلى انشغاله بقراءات لكتب متخصّصة في مثل هذه الموضوعات، فقد أتاحت له الفترة الطويلة من العَطالة التَّامَّة فرصةً ذهبيةً للقراءة، إضافة إلى تصفُّح "الإنترنت" لعلَّه يجد بعض المعلومات المُفيدة، التي تشغله عن التَّفاصيل اليوميَّة الرَّتيبة، أو الاضطرار لاستقبال بعض الزوّار من ثقيلي الظل.

ظنَّ أنَّ الشخص الوحيد القادر على فهم وضعه، والبحث معه عن حلول لقلقهِ المُتفاقم قد يكون "غاريث"، فالغربيون يتفهّمون عادةً النفسَ البشريَّة بشكلٍ ربَّما يكون أعمق ممَّا لدى العرب، ويحترمونُ خصوصيَّة الفرد وأسراره، مهما بدتْ من الغَرابة، بينما في هذه البلاد وما حولها، يُمكن أن يتحوَّل أيُّ موضوع عاديّ إلى نُكتة الموسم، أو يعرف القريب والبعيد بتفاصيل حياة أيّ شخص، ويتبرَّع في إضافة الكثير من الحِكايات الفرعيَّة، أو رشّ "البهارات" عليها إضافةً وحذفاً لتغدو أيَّةُ قضية عادية "فضيحة".

لأجل كلّ ذلك راحَ ينتظرُ الفُرصة المُواتية للقائه كي يُخبره بذلك السرّ الذي رانَ على صدره طويلاً، إذ لا تصلح مناقشة مثل هذه الموضوعات الخاصَّة عبر الرسائل الالكترونيَّة والدرْدَشات.

خلال المُدَّة الَّتي قضاها في البيت على أساس أنَّها "فترة نقاهة"، تحوَّلت في كثير من أيَّامها إلى ما يُشبه العذاب النفسيّ من قبل بعض زوَّاره، وأسئلتهم، وتدخَّلاتهم في تفاصيل حياته الشخصيَّة. في العادة يبدأُ الشَّخص بسؤال الآخر بشكل عام عن صحَّته وأحواله، ثمَّ إذا وجد منهُ تجاوباً راح يُمطره بأسئلةٍ أخرى عن راتبه، ومتى سيتزوّج؟ ومتى سيشتري شقَّة أو يبني بيتاً؟ وأين يقضي وقته؟ إضافة إلى نصائح مجَّانيَّة لا نهاية لها، وكلُّ ما عليه أن يتحمَّل إزعاج الفضوليِّين، وأن يُعيد رواية ما حدث معه مرَّات عديدة، ويجيب عن الأسئلة نفسها: كيف سقطَ؟ ولماذا لم يحترس؟ ومن كان معه؟ وغيرها كثير.

أصبح في كلّ مرة يتفنّن في إعادة الحكاية بشكل جديد، ويتجنّب أن يذكر ولو من بعيد شيئاً عن المكان الذي هوى إليه، ولا عن تلك الجرار الكثيرة، فمن المؤكد أن بعضهم سيظنّه فقد عقله، ويتوهّم كلّ ذلك، كما أنّه لم يذكر شيئاً عن "تلبيته لنداء الطبيعة"، فتلك مصيبة في عُرف الكثيرين منهم، لا سيّما أنّ أغلب زملائه القدامى في المدرسة قد أضحى متديّناً بشكلٍ لم يعهده فيه من قبل، وبعض الجِيران أيضاً، إضافة بالطبع إلى الأقارب،

والأنسباء، وبالتَّالي فإنَّ عدم "الاستبراء من البَول" بالنسبة إليهم يقود إلى عذاب القبر، ويعدُّ دليلاً عن نجاسة المرء، ومؤشّراً صارخاً على عدم حرصه على الطَّهارة لأداء الصَّلوات!.

في تلك الفترة من نهاية العام 2012 م، كانت الأوضاع تغلي في سوريا، والعراق، ومصر، وتونس، وليبيا إضافة إلى فلسطين، هذا عَدا عن الحُمَّى التي أصابت بعض دول العالم لانتظار نهاية الأرض، حسب تنبؤات العرَّافين التي راجت، وما ساهمت في بثّه "هوليوود" أيضاً عبر أفلامها عن هذا الموضوع.

لم يكن التَّديُّن بالنسبة إلى شابٍ مثل "صالح" أكثر من تقليدٍ موروثٍ في عائلة مُحافظة جُذورها بدويّة. فالعادات العائليَّة، والأعراف العامَّة، والأخلاق المتوارثة، وما يُقرّره شيوخ القبيلة، يبدو عادةً أشدَّ قوَّة وتأثيراً من مَقولات كثيرٍ من رجال الدّين.

كما أنَّ شابَّاً مُفعماً بالحياة مثله، وكثير الاختلاط بالمجموعات السياحيَّة، التي تُمثّل شعوباً مختلفة من العالم الواسع، ودياناتٍ عديدة، وأيضاً كدارسٍ للتاريخ، يشعر بأنَّ الكثير ممَّا وصل من الأجداد يبدو صَادماً وبحاجةٍ إلى مراجعة، لهذا كان يمضي أحياناً وقتاً طويلاً في التأمّل بما ظهر عليه السابقون من قَساوة وسفك للدماء، إضافة إلى الإسراف في التَّهتُّك، بناء على ما أورده كثيرٌ من المؤرّخين عنهم، ويغبطُ نفسه وهو يدرك أنَّ النَّاس اليوم في نعمةٍ عظيمة، وأخلاق مذهلة مقارنة مع حال الكثير من أجدادهم.

***

خلال وجوده القسريّ في الزَّرقاء حدثت أشياءُ كثيرةٌ.

ظلَّ بيتُ العائلة هناك ملاذه بين الحين والآخر، يزوره ويتفقّد أهله بعد رحيل والده، ويتنسَّم دفقات الحنان من حضور أمّه البَهيج، فيما يتكفَّل إخوته الباقون عادة بالانتباه إلى التَّفاصيل اليوميَّة، واحتياجات البيت، والقيام بالواجبات الاجتماعية الكثيرة بسبب غيابه شبه المتواصل بعيداً عنهم، لا سيَّما في العاصمة "عمَّان" حيث يأوي عادةً إلى شقّةٍ صغيرة في أحد الجبال المُطلَّة على قلب المَدينة، يتناوبُ الإقامة فيها مع زميل له يعمل دليلاً سياحياً أيضاً، إضافة إلى ارتباطه بمواعيد مُسبقة مع بعض المجموعات السّياحيَّة، التي تتضمَّن برامج زياراتها غالباً "البحر الميّتْ"، و"العَقبة"، و"البَتراء"، و"جَرش".

يعترف أنَّه عاش حياته إلى الآن دون أيّ جدوى، بعد أن أدمن حياة العزوبة، مقترباً من بداية الأربعينات، ومنشغلاً ما بين العمل أو الانغماس بملذّات الحياة وتفاصيلها، مع التنصُّل قدر الإمكان من ثِقل المسؤوليَّات العائليَّة، ورتابة الالتزامات الاجتماعيَّة.

هذا الأمر أصبح مدار نقاشات طويلة، وخلافات أحياناً مع أفراد العائلة، الَّذين قبلوه في النهاية على عِلاَّته المُرهِقة، فقد بَدا بالنسبة إليهم شخصاً لا يُعوَّل عليه، إذ لا يُهمُّه غير راحته، وغير ملتزمٍ بشيءٍ أكيدٍ تجاههم، كما أنَّه كثيراً ما كان يسمع من بعضهم همْساً أو صراحةً اتّهامات بأنّه أضاع نفسه لأنَّه استقال من وظيفته في التعليم، وأنَّ ما يجمعه من أموال يذهب على الملذَّات، والسفر، دون تفكير في المُستقبل، أو الزَواج، أو حتَّى القيام بمشروعٍ مفيد.

يعترف بأنَّ تلك الحادثة أسهمتْ في تغييره بدرجةٍ كبيرة، فقد وصلَ إلى نقطة قريبة من المَوْت، وأمام مثل هذا السؤال الوُجوديُّ القاسي والمُحيّر، صار يشعر أنَّ على المرء أن يتفكَّر في جدوى حياته، وماذا فعل منها بشكل إيجابيّ؟ وما الذي أضاعه منها إلى اليوم؟

مع لقائه زميله في المدرسة، والذي كان التلاميذ يُلقبونه "النّمس" بعد سنوات طويلة من مغادرة تلك المرحلة المبكرة في حياته، حدثت أمورٌ ليست بالحسبان، وصار عليه أن يُعيد التفكير بالانقلابات التي تحدث للنَّاس بين الحين والآخر في حياتهم، والَّتي قد تخرجُ عن السَّيطرة تماماً.

كائنٌ مُدجَّجٌ بالهَذيانْ

لا يدري "صالح" بالضبط كيف تخلّى ذلك الكائن الرّخويّ الدّبق عن اسمه الحقيقي، ولقبه الشّهير الذي عُرف به أي "النّمْس" إلى "أبو حذيفة" بلحيةٍ عريضةٍ غير مشذَّبةٍ، وثوبٍ قصير، وشماغٍ أحمر بلا عقال، ومِسواك في يده، فقد مرَّت سنوات كثيرة لم يرَه فيها، رغم أنَّه ينتمي إلى قبيلتهم الواسعة نفسها، والَّتي رحل كثيرٌ من أفرادها من "المَفرق" وأطرافها الشرقيَّة إلى "الزَرْقاء" تحديداً، ثمَّ انتشروا في مناطق كثيرة من المَمْلكة.

لم يكن مُهتماً أساساً بتتبُّع أخبار أبناء الحيّ الذي تربَّى فيه، ولا حتَّى متابعة أحوال زُملاء الدراسة، فقد أسهمَ مِزاجه الهوائيُّ المُتقلّب في عدم رُكونه إلى أيّ شيءٍ، ولا يكادُ يُطيق الانغماس في العلاقات الاجتماعيَّة المكرَّرة، والبقاء أسير هذه المدينة وماضيه فيها.

في "العاصمة" شعر بذلك التَّنوُّع الكبير لتفاصيل الحياة، وانشغل بالمعارف الكُثْر الَّذين التقاهم هناك بحيث أصبحوا يُغنونه عن البقاء في مدينةٍ مزدحمةٍ تقع على حافّة الصحراء، قُيظها شديد، وأغبرتها تُدمع العيون، إضافة إلى العيش وسط حيّ مُكتظّ بما تبقى من سُكَّانه القُدامى والكثير من المُهاجرين، والغرباء الذي يستأجرون البيوت الضَّيّقة التي هجرها أصحابها إلى مناطق أخرى.

كان قد سمع بعض أخبار "النّمْس" المُتفرّقة من قبل، وكيف انقلبت حياته من شابٍّ مُشاغبٍ لا يكاد أحدٌ من النَّاس يتَّقي شرَّه، مع ملفٍ "سميكٍ" في مخافر الشُّرطة إلى مؤذّن في المَسجد المُجاور لبيتهم بدايةً، ثم تعرُّفه على عدد من "المُجاهدين" العائدين من أفغانستان، والعراق، من القريبين إلى تيَّار ابن مدينتهم "أبو مصعب

الزرقاوي" المتَّهم عن تفجيرات فنادق عمان في نوفمبر 2005 إضافة إلى قضايا إرهابيّة دوليّة عديدةٍ حيث انتهى به ذلك مَقتولاً في العِراق عام 2006م.

عرفَ أيضاً أنَّ "النّمْس" قضى فترةً في السّجن بعد أن لاحظ رجال الأمن أنَّ لديه مُيولاً تطرُّفية، وأنَّه قريب من "جماعة السلفيّين الجهاديّين"، ويتواصل مع عدد من قياداتها.

ذات يوم هبط إلى بيتهم بشكل مفاجئٍ بنيّة الاطمئنان على صحَّته، وبرفقته "حسن" أخيه الأصغر الذي ظهر مُتصاغراً أمامُه ومغتبطاً بتلك الزيارة. من الواضح أنَّه هو من أخبره بوجود "صالح" هناك، وبتفاصيل ما جرى له في "البتراء"، لكن رغم الهالة التي يحيط "النّمس" نفسه بها، وملابسه ذات الطَّابع الأفغانيّ، ولقبه الجديد الذي يُحيل إلى أزمنة غابرة، إلا أنّهَ لم ير فيه غير زميله السابق نفسه الذي كان يفيض بطاقة الشَّر، وعلى استعدادٍ لمطاردة قِطَّة بالحِجارة على سبيل التَّسلية، أو كسر زجاجِ أحد البيوت، أو المشاجرة مع أيّ عابر. ربَّما لتوزيع تلك الطَّاقة السوداويَّة التي كانت تفيض منه، فكثيراً ما تمَّ ضبطه أيضاً مترنّحاً في الشارع من أثر السُكْر المُفرط، ويستوي ذلك في الليل أو النهار، وها هو الآن يجلس بوقار، بَدَا مُصطنعاً أمامه، وقد أحاط نفسه بعدد من أتباعه، الذين ظهروا مُستلبين لحضوره تماماً، ليس لهم إلّا السَمع والطاعة في المَنشَط والمكْرهْ.

استغرب أيضاً أنَّ "النّمس" يتحاشى الكلام بلهجتهِ المُعتادة ألّتي تأخذُ شيئاً من مفرداتها من البادية ومزيجاً آخر من المدينة، فقد واصل حديثه مُصراًّ على العربيَّة الفَصيحة، كأنَّه قادم من أحد المسلسلات التَّلفزيَّة التَّاريخيَّة، لا سيَّما مع شعر رأسه الطويل، وعينيه الكَحيلتين.

بدأ كلامه بحمد الله على سلامته، وأنَّ زيارة "الإخوة في الله" واجبة، إضافة إلى صِلة الرَّحم بحكم القَرابة التي تجمعهما، هذا عدا عن زَمالة المدرسة من قبل.

- **ما شاء الله يا أخ "صالح" وجهُك يَشعُّ منه النّور. أكيد أنَّ الله يُحبّك لأنَّه ابتلاك بهذه الحادثة حتَّى يُخفّف عنك شيئاً من خطاياك، ويرفعك درجات. واسمك اسم نبيّ كما تعرف، و أنت محظوظ بهذه التَّسمية، وإن شاء الله تقوم بالسلامة لنراك معنا في المَسجد لتحافظ على الصلاة، وحضور الدُّروس الأسبوعيَّة.**

توقَّفَ قليلاً ليأخذ نَفَساً، كأنَّه في خُطبة مَنبريَّة، ثم تابع ومضيفه يهزُّ رأسه فقط، مُكتفياً بالقول "إن شاء الله" أو "ما شاء الله" حسب الحالة:

- **يا أخي والله أستغرب من تَهاون النَّاس في الصَّلاة اليوميَّة، وحتَّى صلاة الجُمعة، فشيخ الإسلام ابن تيميَّة، يرى في فتاواه أنَّ الرَّجل البالغ، إذا كان بيته قريباً من المسجد، ولم يحضر صلاة الجمعة، أو امتنع عن صلاةٍ واحدةٍ من الصَّلوات الخمس، أو ترك بعض فر ائضها فإنَّه يُستتاب، وإلا يُقتل.**

شدّد كثيراً على كلمة "يُقتل" وهو يُمعن النظر إلى ساق مضيفه الملفوفة بالجبس والأربطة البيضاء، وبقايا آثار الحادثة الماثلة على وجهه مستدركاً بآيةٍ أخرى "ليسَ على المَريض حرج..".

بعدها واصل خطبته العصماء، باتّجاهات مختلفة، إذ شرَّق وغرَّب، ثم وجده ينتقل من التركيز على موضوعه الخاص، إلى اللَّمز لضرورة حضوره الصَّلوات الخمس بعد الشفاء، ثم الانتقال إلى القضايا الكبرى والأحداث السياسية، وتهاون الدولة في تطبيق الدّين، وقد بَدَا النمس لزميله القديم مُتهّوراً في آرائه، لا يحسب لسنوات السجن التي قضاها، أو مراقبة الأمن له بعد ذلك أيَّ حساب:

- **يا أخي بالله عليك أترى أنَّنا نعيش في مجتمعٍ مسلمٍ، والخمرُ يُباع في الأسواق، والنّساء كاسياتٌ عارياتٌ، والحكم للطَّاغوت وليس لله، وبلاد المُسلمين تُستباح من الكَفَرة، عدا عن الغلاء للسّلع، والفُحش في كلّ مكان.**

ظهرَ مُضيفه المُثقل بجبيرته في وضعٍ لا يُحسد عليه، فهذا "النّمس" بحلّته الجديدة، استغلَّ فرصة الاطمئنان عليه، وحركته البطيئة، وراح يلقي عليه خُطبةً منبريَّةً في السّياسة والدّين، مُبطَّنة بالتَّهديدات أمام مجموعة من حاشيته المُسرنمين أمامه بلا حولٍ لهم ولا قوَّة.

من المؤكد أنَّه لو كُشف عنه الحِجاب، واطَّلعَ على تفاصيل حياته، وأفكاره المُضادَّة لما يقوله، لأصبح في عرفه من "الكُفَّار" أو "المُنافقين" الذين ينبغي أن يُقام عليهم الحدُّ، ويخشى أنَّ أخاه "حسن" قد سرَّب شيئاً منها إليه، غير أنّ شهيَّة الضيف الثقيل للخطابة لمْ تَفْتُر، فراحَ يستكملها بقوَّة أكبر، فيما لعنَ "صالح" الساعة التي زامله فيها بالمدرسة، إضافة إلى القرابة البائسة، من الدَرجة العِشرين الَّتي تربطه به، وراح يتوعَّد في داخله أخاه الذي جاء به إلى البيت.

- **يا أخي لا جدالَ عند أحدٍ أنَّ المُجتمع كافرٌ، فانظر ماذا يقول حتَّى مُنظّر الإخوان المسلمين المُهادنين أصحاب المَصالح الدنيوية سيّد قطب** - هنا نظرَ إلى من معه بابتسامة كمن سَجَّلَ هدفاً في مرمى جماعة الإخوان - **يقول في كتابه "مَعالم في الطَّريق:" *إنَّ العالم يعيش اليوم كلَّه في جاهليَّة من ناحية الأصل الذي تنبثقُ منه مُقوّمات الحياة وأنظمتها، جاهليَّة لا تُخفّف منها سوى هذه التيسيرات الماديَّة الهائلة. هذه الجاهليَّة تقوم على أساس الاعتداء على سلطان الله في الأرض، وعلى أخصّ خصائص الألوهيَّة، وهي الحاكميَّة، إنّها تُسند الحاكميَّة لبني البشر فتجعلهم أرباباً* "**

فهذا كما ترى رأيُ مُنظّر الجَماعة الَّتي تُهادن الدَّولة، وتَتحالف معها منذ تأسيسها، فكيف بالله عليك يَستغربون رأيَ جماعتنا الَّتي هي على الحقّ، والفرقةُ النَّاجية - إنْ شاء الله - في هذه المسألة؟

بعدها اختتم كلامه بالترضّي عمن يراهم من كبار الشُّهداء، الذين حاولوا إقامة شرع الله وإعادة الخِلافة الإسلامية من جديد في وقتنا الحالي، وذَكر من بينهم "ابن لادن و"أبو مصعب"، ودعا الله أن يرزقه الشَّهادة مثلَهم، كما لم يَنْسَ أن يمرَّ على ما يجري في سوريا والعراق أثناء حديثه، وأن يتناول شيئاً من تجربته في السّجن، وتعرُّفه على بعض شيوخه من السلفيين الجهاديين هناك مثل: أبو محمد المَقدسي، و محمد الشلبي "أبو سيَّاف"..وغيرهم.

انتهت الزيارة الكارثيَّة أخيراً، وتنفَّس المُصاب الصُعداء من "النّمس" وجماعته، ومرافعاته المُتطرّفة بعد أن وعده قبل مغاردته البيت بزيارة أخرى للاطمئنان عليه مُجدّداً، كما لو أنَّه يُريد أن يبعث إليه برسالة مُبطَّنة في أنَّه سيتابعه، وسيبقى تحتَ نظره.

بعد ذلك اللقاء راح "صالح" يُفكّر بطريقةٍ يَتهرَّبُ فيها من رؤيةِ وجهه مُجدَّداً، والانتهاء من كابوسه الذي هبط عليه بلا استئذان، فيما تأمَّل كلامَه الخطير الذي يُكفّر فيه الدولة، وكلّ من هو من غير جماعته، كأنَّه يمتلك الحقيقة من دون العالمين، وبيده مفاتيح الجنَّة والنَّار، وشهادات الكُفر والإيمان، يُوزُّعها على من يشاء، وتمنَّى في أعماقه ألَّا يعود إلى بيتهم مُجدَّداً، وأنْ يتخلَّص أخُوه المُستلب من حبائِله.

"ماغي" البَدويَّة

بَدَا "صالح" مُتعافياً تماماً من آثار تلك الحادثة على جسده، لكنَّ روحه كانت تئنُّ بين الحِين والآخر بحثاً عن السَّكِينة، ومع ذلك خرجَ من إقامته الاستشفائية ليلتحق بفريق "غاريث" من جديد.

من الواضح أنَّه استغلَّ عُزلتة الاجباريَّة تلك في القِراءات، وبالذَّات كتاب "تزوجتُ بدويَّاً"، كما استطاع الحصول على معلومات وفيرة من بعض أصدقائه الأدلَّاء السّياحيّين عن حياةِ "أمّ رامي" في البَتراء منذ وصولها إلى يومنا هذا، إضافةً إلى أنَّه رتَّب معها كلَّ التَّفاصيل هاتفيَّاً، قبل وصول فريق التَّصوير من بريطانيا، واتفقا أيضاً على الأماكن الَّتي سيتمُّ تصويرها فيها، والَّتي غالباً ما تتحرَّك ضِمنها في هذه المنطقة الصَّخرية النَائية، فيما كان يبلّغ الفريق بما يستجدُّ من ترتيبات.

وقع خبر شفائه وعودته إلى العمل بهيجاً على الكثير ممَّن عرفه كأنَّ مُعجزة أنقذته، أمَّا هو فقد شعر بأنَّ عودته تُشكّل نوعاً من التحدّي لذاته أوَّلاً حتى لا يقع أسير رُهابِ العمل في المكان نفسه، وبما أنّ الكسور قد التأمت، والجروح شُفيت، فالحياة ينبغي لها أن تستمرَّ، مع الانتباه بالطبع إلى أنَّ التهوّر لم يعد له وجود في قاموس حياته بعد ما جرى له، مع ضرورة أن يتأنَّى في كلّ شيء، ويقوم بمراجعة نفسه في مسائل كثيرة مرَّ عليها من قبل دون أيّ انتباه.

بالنّسبة للفريق فإنَّ عودته للعمل معهم من جديد يُعدُّ إثباتاً صريحاً لهم بأنَّ تلك التجربة الأليمة قد أصبحت من الماضي، وأنَّ رحلة العلاج قد انتهت بنجاح، وفي الوقت نفسه يرى هو أنَّ ذلك نوع من الوفاء

من قِبَلِهِم، أي أنّهم لا ينسون أصدقاءهم، ولا يتخلّون عنهم لمجرّد الإصابة أثناء العمل أو المَرض، صحيحٌ أنَّ بعض أعضاء الفريق قد تبدَّلوا بآخرين، غير أنَّ الهيكل الأساسي لهم ما يزال فاعلاً، وعلى الخصوص "غاريث" الذي بَدَا أكثر الفرحين بعودته، وحريصاً على عدم ارهاقه بالعمل لساعات طويلة مع اعتماده بشكل كبير على التَّرتيبات التي وضعها لهم للتصوير والمقابلات.

بدأ الفريق في إنجاز الفيلم الذي يرصد حياة "ماغي" كما يطلقون عليها، تصغيراً لاسمها الأصلي "مارغريت" وتّم وضع مشاهد تمثيليّة لمُحاكاة تفاصيل ما جَرى معها في العام 1978 حين وصلت إلى البتراء سائحةً لأوَّل مرَّة برفقة صديقتها، قبل أن تلتقي وجهاً لوجه مع الرجل الذي أصبح زوجها لاحقاً، وأسهم في تغيير مسار حياتها إلى الأبد.

اختارت "ماغي" بنفسها فتاةً بريطانية تعيشُ في "عمَّان"، لتقوم بتمثيل دورها أثناء قدومها شابَّةً إذْ إنَّ عَلاقةً عائليةً تربطها بأهلها منذ سنوات عديدة، كما أنَّها ترى ملامح عديدة في قسمات وجهها تجمعهما معاً، خُصوصاً إذا رجعت إلى الوراء نحو ثلاثين سنة.

كان على "صالح" كمُعدٍّ لهذا الفيلم أن يلتقي أوَّلاً الفتاة التي تدعى "أليس" في فندق "الموفينبيك" المُجاور للمدينة الأثريَّة حيث يقيم الفريق، ليشرح لها دورها وتفاصيله، وهذا من الأمور المُبرمَجة قبل بدء التصوير بيومٍ واحد.

في ذلك المساء أصرّت "ماغي" على دعوة أفراد الفَريق إلى طعام العَشاء في بيتها بالإسكان المُقام على أطراف البَتْراء. وهناك تعرَّف على "أليس" بشكلٍ أعمقَ، وعرف أنَّها تَعيش في عمَّان منذ نحو ثلاث سنوات بِرُفْقة والدها الذي يعمل مدرّساً للّغة الإنجليزيَّة في "المَركز الثَّقافيّ البريطانيّ"، فيما تعمل والدتها إدارية في السّفارة البريطانيَّة، وقد اختارت "أليس" التعمُّق في دراسة اللّغة العربيَّة في مركز اللّغات بالجامعة الأردنيَّة بعد إنهاء دراستها في

العلوم السّياسيَّة في جامعة لندن، بينما أصبحت تقوم بين الحين والآخر بتدريس بعض الدَّورات الخاصَّة باللغَّة الإنجليزيَّة للمُبتدئين.

"لا أومن بالصَّدف أبداً، فكلُّ شيءٍ في هذا الكون يبدو مرتَّباً، ويحدثُ لسببٍ مُعيَّن.."

هذا ما دار في أعماق "صالح"، وهو يُطيل النظرَ إلى تلك الفتاة التي تضجُّ بالحياة، وهي تُحدّثه بشَغفٍ عن عِشقها للأردن، واختيارها العربيَّة لغةً تتواصل عبرها مع النَّاس بسهولة، وتتعرَّف أكثر على ثقافتهم.

حين جلس في غرفته بالفندق وحيداً تلك الليلة راحَ يسترجع يومه بكلّ تفاصيله، ولا يدري لم كان وجه "أليس" حاضراً بقوَّة أمامه، فيما صوته الداخلي يكاد يصل إلى حُنجرته من البَوْح:

"لستُ من النَّوع الرُومانسيّ الَّذي يُؤمن بالعواطف التي تُحاصر المَرْء من أوَّل لقاء، بل عادةً ما أُعمل عقلي في تفاصيل حياتي الاجتماعيَّة، بحيث يحسبني كثيرٌ ممَّن يعرفني رجلاً جافَّاً تحكم حياته المصالح، ويُخطّط لأيامه بشكلٍ مُحكمٍ بعيداً عن ضغط الأحاسيس، إضافةً إلى أنّي أعتبر نفسي قد تجاوزت تلك المرحلة من بثّ المشاعر على طريقة الأفلام الهنديَّة. ربَّما أعزو كلَّ هذا الجَفاف في الأحاسيس تجاه المرأة بشكلٍ عام؛ لأنّي عبر ما لا يقل عن عقدٍ سابقٍ من حياتي مررتُ بتجارب فاشلةٍ، فقد أهرقتُ أطناناً من العواطف الجيَّاشة، والكلمات المفعمة بالشاعرية، واستمعت إلى أغانٍ أبكتني، وأخرى رفعتني عالياً، كما لو أنَّ المرأة المَعشوقة نهاية قصوى لما يمكن أن يصل إليه الرجل، ومن دونها تغدو حياته خربة بلا روح.

لا أستطيع تحميل فشلي في حياتي العاطفيَّة للنّساء اللَّواتي تعرفتُ إليهن بحيث يبدو الأمر كما لو أنَّني بريء تماماً من مشاركتي في هذا الفَشل، واتّهام الطرف الآخر بأنَّه سبب كلّ ما وصلت إليه اليوم من تنظير سلبيّ في حقّ العِشْق، فكلُّ تجربة مررت بها و أتذكرها الآن لها جمالياتها الخاصَّة بها وإخفاقاتها، ربَّما لأنَّني من

جيلٍ مهزومٍ لم يعدْ شيءٌ يُسبّب له الفرح، ويقوده إلى الدَّهشة، أو ربَّما؛ لأنَّ العلاقات البشريَّة أصبحت اليوم جزءًا من النَّمط الاستهلاكي، وطالَتْها كلُّ فجاجته وانهياراته".

ومع كلّ اعترافاتي التي تتلجْلجُ في داخلي والمثيرة للاحباط، أشعر بأنَّ "أليس" بوجهها الطفوليّ الطَّافح بالبراءة، وشعرها الأشقر المتروك بحريَّة كما هيبيَّات السَّبعينات، وحبَّات النَمش التي تطلُّ على استحياء من نحرها، وشخصيتها العمليّة ببنطال الجينز الباهت، والقميص القُطنيّ، والحذاء الرياضي الخفيف، وحواراتها العميقة في الموضوعات التي تطرحها، وكلّ هذا الانطلاق العفوي في جانبها الاجتماعي، قد جذبني إليها، وحرَّك كيمياء روحي الهاجعة، قبل كيمياء جسدي الذي لم أكنْ أُعوّل كثيراً على خياراته؛ إذ إنَّ نظرةً إلى نوعيَّة النِساء اللواتي اقتربت منهنَّ خلال السنوات الأخيرة، وارتبطت معهنَّ بعلاقات عابرة، استبحنَ خلالها كلَّ تفاصيلي الحميمة، تُشير إلى أنّني ربَّما كنت "أحول" عاطفيَّاً، أو لا أتقن الاختيار.

لا أريد أن أكون واهماً إذ شعرتُ بأنَّ "أليس" تُبدي شيئاً من الاهتمام بي، خُصوصاً حينما حدَّثها "غاريث" عن تفاصيل ما جرى معي في ذلك الجبل، قبل أشهر قريبة. بَدَتْ الدَّهشة الفطرية على وجهها حينها فزادته براءة وجمالاً، وأحسستُ بها وهي تنظر إليَّ كأنَّها ترى بطلاً خرج مُنتصراً من معركة قاسية، ويجلس بتواضع أمامها دون أن ينتبه إليه أحد".

داهمتْ قُطعان الحِيْرَة ذلك الشاب البدويَّ الجُذور؛ إذ لم يُدْرك بَعدُ إنْ كان هذا الاهتمام من طرف تلك الانجليزيَّة ضربٌ من الشَفَقة لما جرى معه، أو ربَّما كيمياء روحها قد بدأت تُوجّه بوصلتها نحوه. في الحقيقة لم يكن متأكَّداً من شيءٍ غير أنَّ شخصيتها الآسرة بدأتْ تحتلُّ جزءاً كبيراً من تفكيره تلك الليلة، وفي الأيام اللاحقة أيضاً حينما غرق الجميعُ في تصوير المشاهد.

من الواضح أنَّ "أليس" بدتْ متحمّسةً لتجسيد دور "ماغي"، وتكاد تتماهى مع شخصيّتها. كما ظهرَ السُرور على وجه المُخرج بما أنجزه من مشاهد تمثيليَّة استرجاعيَّة. بدأ بعدها بتصوير الجزء الخاص من الفيلم الوثائقي مع "ماغي" نفسها، وهي تستعيد ماضيها، ثمَّ وهي تقود الفريق عبر منعرجات "البَترا" وخباياها التي تحفظها بشكلٍ مُدهش، لكي ترصد حياتها الطبيعية اليومية هناك.

قام الفريقُ بتصويرها وهي راكبةٌ على حمار أثناء نقل الماء، والتقط مشاهد لها وهي تُشعل النّيران في الحطب، وتطهو في أواني الألمنيوم بعض الأكلات الشعبيَّة التي أتقنتها. بالطَّبع لم يذهب كلُّ ما طبخته هباءً في ذلك اليوم، فقد انقضَّ الفريق على "المَنْسَفْ" اللَّذيذ الذي أجادت "ماغي" طَهيه.

بعد انتهاء التصوير مساء ذلك اليوم رغب "صالح" في مُرافقة "غاريث" للعودة إلى الفُندق سيْراً على الأقدام عبر السّيق؛ إذ بدت له فرصةً سانحةً للحديث معاً في موضوعات كثيرة، ربَّما لتوثيق تلك العلاقة التي تعمَّقت بينهما من خلال التَّواصل السابق عبر الدَرْدَشة الالكترونيَّة. إضافة إلى أنَّه أراد مُصارحته ببعض الأسرار التي تُشغِل أعماقه، وما جرى معه في الكهف، لكنَّه بقيَ مُتردّداً، ومُعلّلاً نفسه أنَّ الفُرصة لم تسنح بعد، ولا بدّ أن تتوثق علاقتهما أكثر خلال الأيام المقبلة ليتعرف فيها بشكل معمّق على شخصيته. بعدها يمكن طرح موضوعاته الخاصة معه بشكلٍ تدريجي.

في منتصف السّيق تقريباً، توقّف "صالح" فجأة ذاهلاً عن رفيقه، ثم داهمته لثوان قليلة رؤى ضبابية، أجفل بعدها، والتجأ مذعوراً إلى تجويف مرتفع في باطن "السّيق"، فيما علت دقات قلبه وبدأ اللهاث يطارده، والعرق يسحّ عن جبهته بشدّة. حين هدأ رأى "غاريث" قربه يهزّه بلطف من كتفه، ويقول له:

- **هل أنت بخير يا عزيزي؟**

أخبره بعد أن هدأ وجيب قَلبه المُتسارع، واسترجع انتظام أنفاسه، أنَّ عليهما أن يَجلسا معاً بهدوء لاحقاً كي يقُصَّ عليه كلَّ شيء، لهذا اتَّفقا على اللقاء في غرفته بعد تناول العشاء في مطعم الفندق مع فريق العمل.

شعرَ بالإحراج لما جرى معه، فها هو "غاريث" يشهدُ بنفسه شيئاً من اضطراباته المفاجئة، بعد أن كان على وشك أن يُحدَّثه عن تفاصيل تلك الليلة المشؤومة حينما هوى إلى الكهف، ولكن ها هي الأحداث الغامضة قد عادت لتنهش صحوه، والرُّؤى المُهشَّمة تتداخلُ مع حياته الاعتياديَّة، وتُفسد عليه طمأنينة أيامه، دون فهم منه لحقيقة ما يجري معه بالضبط.

حين جلستْ "أليس" قُربه في ذلك المساء لتناول الطعام مع بقية أعضاء الفريق، أصرَّت على مبادلته الحوار باللغة العربية أغلب الوقت، رغم أنّها لم تكن تُتقنها بشكل جليّ بعدْ. شعرَ بشكلٍ غير مباشر برغبتها في التقارب معه، وفيما انشغل الجميعُ بالحوارات الجانبية، عرفَ منها أنَّها ستُغادر عائدةً إلى "عمَّان" في صباح اليوم التالي، لهذا أعطته رقم هاتفها للتَّواصل معها في حال عودته من "البَتْراء" بعد انتهاء عمله، وشكرتهُ على جهوده مع فريق الفيلم، متأسفةً من جديد على الحادثة التي أصابته، وبدتْ من شدَّة تهذيبها واعتذارها كما لو أنَّها كانت المُسبّبة لها.

قالت إنَّها أحبَّت روح المُغامرة فيه، ووفائه للعمل رغم التَجربة القاسية التي مرَّ بها.

بعدها استأذنت منه للذهاب إلى غُرفتها كيْ ترتاح، فقد بَدَتْ مُنهكةً تماماً، فيما أخبرها أنّه يأمل أنْ يلتقيا في إفطار الصَّباح قبل مغادرتها، فيما راحت تُردّد الجُملة الشَّهيرة الَّتي صارت تنْطقها بالعربيَّة في كلّ شؤون حياتها حتَّى على سبيل الفكاهة أحياناً:

- **إن شاء الله ..!**

سيلٌ هادرٌوجثثٌ طافيةٌ

حين التقى "غاريث" في تلك اللَّيلة، ولا ثالث لهما إلا الـ "جِن"[8] المخلوط بالَّثلج واللَّيمون، احتار من أين يبدأ حكايته:

- **أرجو ألّا أخيّب آمالك في ما سأخبرك به الليلة.**
- **بالعكس أنا مُتحمّس جدَّاً لما ستقوله..كن صريحاً معي..نحن أصدقاء.**

فكر بأن يبدأ من لحظة سقوطه في ذلك المساء، حيث الشَّمس في أبهى صورها، وهي تغطس بين الغيوم في ذلك الأفق المذهل، بينما انشغل الجميع وقتها بتصوير الجديِ الذَّبيح وتجهيزه للشيّ.

ليت هاتفه النَّقَّال يعود إليه ليُري نديمه الغريب تلك الصُّورة التي كانت سَبباً في زلَّة قدمه، والسُّقوط إلى الأسفل حتى تلقفته تلك الحفرة، لا لا.. قد يكون ذلك شيئاً غير مناسب كي يبدأ حواره به، إذ لن يستطيع إخباره عن محاولته التقاط صورة. سيكون ذلك إهمالاً منه، لهذا يُمكن أن يُحدّثه فقط عن تلك اللَّيلة التي قضاها ما بين الصَّحو والغيبوبة، وهو يتلوَّى من الألم، لكن ما قيمة كلّ ذلك الآن، والرجل مُرهق بعد يوم عملٍ مُضنٍ، ولن يكون لديه وقت طويل لسماع تلك التَّفاصيل، لأجل ذلك يمكن أن يذهب إلى الموضوع مباشرة دون أيّ تلكؤ، أي بالضبط منذ تلك اللحظة التي وجد فيها الجِرار، وما فعلته تلك القطرات الذهبيَّة في تحفيزِ أعماقه للإطلالة على حَيَوات مضتْ منذ أزمان بعيدة:

---

[8] GIN شراب كحولي مسكر

- **هل تؤمن يا عزيزي بإمكانيَّة أن يكون الإنسان قد عاش من قبل حياة أخرى بجسدٍ آخر؟ وهل بإمكان ذلك المزيج العسليّ أن يفعل مثل ذلك؟ أم ترى أنَّ ما حدثَ مُجرَّد هلوسات بصريّة، واضطرابات عصبيّة، ومحض تخيُّلات من أثر الضَّربة التي أصابت رأسي وأدخلتني في غيبوبة؟**

ظلَّ "غاريث" مُنصتاً أغلب الوقت لجليسه الذي راحَ يتحدَّث دون توقُّف، ويبدو أنَّ أثرَ الشَّراب قد بدأ يُعطي مفعوله من ناحية ثرثرته المتواصلة، وانطلاق لسانه في حكايات شتَّى، فيما الرَّجل، يكتفي بهزّ رأسه، أو قول عبارات مقتضبة من نوع:

- **ممم.. حسناً..ربَّما..لا أدري...عجيب..حكايتك غريبة..لكنَّك لم تُخبرني بما جرى اليوم في السّيق، ولمَ وليتَ هارباً فجأةً، واحتضنتَ باطن الصُخور مع هذيانك وخوفك..هذه مسألة نفسيَّة قد تحتاج إلى عِلاج يا عزيزي؟**

أخبره بأنَّه توقف فجأة هناك حينما رأى سيْلاً هادراً يتدفَّق إلى "السّيق" من جِهة اليمين؛ حيث يتلاقى هذا الشّقُّ مع مدخل لأحد الوديان. كان جارفاً وقويَّاً يكاد يرتفع نحو المِتْرين، لهذا وجد نفسه يهرب إلى أيّ مكان مرتفعٍ وقريبٍ حتَّى لا يطاله الغَرق. قال إنَّه رأى مجموعةً من السيَّاح تبدو من ملابسهم أنَّهم قساوسة ورهبان من الأجانب، وقد داهمهم السَّيْل وجرفهم معهُ بقوَّة وهم يصرخون.

لم يكن الطقس يُنذر بِمثْل هذه التقلبات، ولم يكن ذلك الممرُّ الصَّخريّ على حدّ معرفته به، مُنفتحاً على ما تَجودُ به السماء في الأودية المُحيطة به، وحين بدأ باستيعاب ذلك غاب السَّيل فجأة كما ظهر، وعاد "السّيق" مثلما خبُره قبل لحظاتٍ جافّاً، ووجد نفسه واقفاً دون حركة، وذاهلاً عن نفسه، و"غاريث" أمامه يهدّىء من روعه.

لا يستطيع أن يدَّعي أنَّ هذا الحوار الذي دار في أعماقه قد أوصله بحذافيره إلى رفيقه تلك الليلة ، لكنَّه يذكر أنَّه حدَّثه عن تلك التدخُّلات الَّتي تُشوّش حياته اليَومية أحياناً، وشيء عن الكهف، وما استطاع مشاهدته فيه، وما حصل معه في "السّيق" من السَّيل الجارف، والجُثث الطَّافية فيه. وربَّما أشياء أخرى مُشظَّاة.

يذكر جيداً أنَّ رفيقه كان يُصغي إليه بكلّ حواسّه، مُتأثّراً بغرائبيّة حِكايته، فيما ظهرتْ على قسمات وجهه ملامحُ من حماسه الفطريّ الطَّاغي، وإعجابه بفكرة التداخلات للحيوات السَّابقة الَّتي تُصيب صديقه، غير أنَّه في النهاية أخبره بصراحة أنَّ مثل هذه الموضوعات بحاجة إلى مُختصّين للبتّ بشأنها، مثلاً: أطباء أعصاب أو أطباء نفسيون، لكنَّه في تعليقه على تخيُّله للسَّيل الذي أغرق "السّيق"، أخبره شيئاً يسمعه للمرَّة الأولى، وبَدَا كافياً لكي يطيح بما تبقَّى في رأسه من أثر الشَّراب:

- **خلال الفترة الماضية قرأتُ الكثير من الكُتب عن البَتْراء وحضارة الأنباط وحتَّى التَّاريخ المُعاصر للمدينة، منذ زيارة الملك عبدالله الأوَّل لها في منتصف العشرينيات، وبَدْءِ قبول أفواج السيَّاح للتعرّف على كنوزها. آه تذكرت. لقد قرأتُ أنَّ مجموعةً من الرُهْبان الفرنسيّين كانوا في زيارة إلى المدينة مُنتصف السّتينات، وبينما هم يَسيرون في السّيق، أمطرت السَّماء في الخارج، وسالت الأودية بمياهٍ كثيرة، وتدفَّقت عبر هذا المَمَرْ. كانت قوَّة السُّيول كافيةً لجرفِ هؤلاء الرُهبان وإغراقهم جميعاً. كارثة حقيقيَّة مُحزنة. بعد تلك الحادثة أقامت الدَّولة سدَّاً تحويليَّاً للمياه حتَّى لا يتكرر السَّيل الجارف من جديد، ويُشكّل أيَّ خطر على الزُوَّار. هل سمعت بهذه الحكاية أو قرأت شيئاً عنها من قبل عزيزي؟ وبالتالي قد تكون تذكَّرتَ تفاصيلها ونحن في مُنتصف "السّيق" وجرى لك ما جرى؟.**

أذهله ما سمعه من "غاريث" فهذه أوَّل مرَّة يعرف فيها عن ذلك السَّيل الذي اجتاح المكان، إذ لم يكن قد قرأ شيئاً عنه من قبل.

"يا إلهي! ما الذي يجري لي بالضبط؟ هل كُنت هناك حقًّا في تلك اللحظات وشهدت تلك الحادثة؟ وإلا كيف تسرَّبت إليَّ هذه الحالة بكلّ ذلك الوضوح، كما لو أنِّي أمام مشهدٍ سينمائيٍ ثُلاثيَّ الأبعاد، حتَّى إنَّني احتميتُ بباطن الصُخور خَوفاً من أن يجرفني ذلك السَّيل الضَّخْم".

فهم "صالح" من رفيقه في تلك الليلة أنَّه لا يُؤمن بفكرة الحَيَوَات السَّابقة رغم انجذابه للحكاية، ولا علاقة قويَّة تربطه بالرُّوحانيَّات، والظواهر الغامِضة التي قد تجري أحياناً هُنا أو هناك، لكن من المُمكن أن يستفسر له عن هذا الموضوع من بعض أصدقائه في "لَنْدن" الَّذين لديهم مثل هذه الاهتمامات، أمَّا ما يتعلَّق بالكهف، فقد كان مندهشاً جداً مما جرى فيه، لهذا قال له:

- **يجب أن تجد طريقة للدخول إليه مُجدَّداً....أوربَّما إبلاغ الدَّولة عنه للقيام باكتشافه. هذا كنزكبير لكم، و أكيد للعالم.**
- **الدَّولة. ممم. لا لا. انْسَ الموضوع يا رَجل. سأدخل في سين وجيم. ولِمَ لَمْ أُخبرعنه من قبل؟ ومنْ رآه معي وعرف مكانه؟ وماذا وجدت هناك بالضَّبط؟ وهل أخذت منه شيئاً؟ وهل أبلغت عنه أحداً من البَّدو العاملين مع السُيَّاح هناك أو الأجانب؟**

من الواضح أنّ نظرة "غاريث" للدَّولة والثقّة بها، وطريقة تعامله مع الأمور تختلف تماماً عمَّا هي لدى رفيقه البدويّ الذي راح يطرح عليه خيارات أخرى عديدة لحلّ هذه المشكلة مثل:

- **ما رأيك أن نخبر عنه "ماغي"، وهي بطريقتها تختار من تثق بهم من أبنائها أو أبناء المنطقة للدخول ليلاً بشكل سرّي هناك بعيداً عن أعين حرَّاس الآثار..وما سنجده سيكون مناصفةً بيننا..!**
أو نتفق مع بعض من نثق بهم من أبناء "وادي موسى" ليدخلوا إلى الكهف، ونتعاهد على أن يكون الكنز مناصفة، وبالنسبة لك يمكنك أخذ بعض الجرار معك الى "بريطانيا" لفحص مادَّتها..!

ضحك صديقه من اقتراحاته التي بدت له شبيهة بمغامرات فيلم "إنديانا جونز والحرب الصليبيَّة الأخيرة"[9] الذي وقع تصويره في البَتْراء نفسها في العام 1989. ربّما لم يستوعب بعد كيف يُمكن لدليلٍ سياحيّ أن يفكر بالسطو على كُنوز بلاده، ويمنحها للأغْرَاب، أو قد يكون تخيَّل تلك المغامرة التي سيقوم بها، وما سيتحمَّله بعدها من وزر أو إشكاليات، لهذا صمت طويلاً بعد تلك الضحكة العالية، ثم قال بشيءٍ من الجدّيّة:

- **عزيزي صالح..الحلُّ يكمنُ في إخبار الدَّولة عن الكهف، فهي الأقدر على معرفة ما فيه، والدُّخول إليه بشكل رسميّ. يُمكنك أن تقول إنَّ ذاكرتك مُشوَّشة والآن فقط تذكرت أمره. من المُؤكد أنَّهم سيكافئونك على ذلك، لأنَّ بقيَّة السِيناريوهات تبدو لي خطيرة، ونتائجها قد تكون وخيمة عليك. بالنسبة لي كما تعرف فأنا ضيف لأيامٍ معدودةٍ في هذه البلاد، ولا خبرات لي أصلاً بمثل هذه الأمور، أمّا تهيؤاتك للحيوات السابقة لك أو للآخرين، فتلك مسألة سأستقصي عنها جيداً، وسأخبرك بما يمكن أن أصل إليه.**

نصحهُ أيضاً أن يتقصَّى جيّداً، بشكلٍ غير مباشر بشأن وجود كهف في ذلك الجبل أصلاً، وإن كان هناك من سمع عنه من الأهالي أو المُرشدين السياحيّين حتى لا يبدو الأمر مجرد تخيَّلات من أثر ذلك السُّقوط.

9

Indiana Jones and the Last Crusade Directed by Steven Spielberg

وحين لاحظ استغرابه من كلامه المتشكّك، وتأثّره به، وصمته المفاجئ اعتذر منه بشدة، وقال:

- انت تعرف أنّي أُصدّقك، لكن لا أريد أن تقع لك مشكلة مع أحد.. والحذرواجب في هذه المسائل الحسّاسة!

حين استيقظ صباح اليوم التالي متأخراً من أثر السهر في الليلة السابقة، والإسراف في الشراب، والأحلام الوردية. اكتشف أنّ "أليس" قد غادرت إلى عمان، لهذا لم يجد من وسيلة غير إرسال رسالة نصّيّة لها عبر هاتفه، متأسّفاً على أنَّه لم تتح له الفرصة لوداعها.

لم يتأخر ردّها الذي جاء بعبارة مقتضبة، لكنّها قابلة لأن تفتح المجال لحوارات أخرى قريباً:

"لا عليك..كان لا بدّ أن أغادر مبكرةً لارتباطي بعمل في عمّان..كن بخير.. نتواصل".

***

خلال الأيام المُتبقية استكمل الفريق تصوير جزءٍ كبيرٍ من حياة "ماغي" التي تحولت إلى السيدة "أمُّ رامي" الأردنية بائعة التحف لسيّاح البتراء، والمؤلّفة التي طبع من كتابها آلاف النسخ، وتُرجم إلى لغات عديدة، رغم أنّ لغته بسيطة، وأسلوبه غير معقّد، فهو سيرة على شكل حكاية تدخل إلى القلب مباشرة، ويتفاعل معها القارئ بسهولة.

انتقل الفريق معها إلى أماكن عديدة لا سيّما في المنطقة الخاصة بقبيلة "البدول" الواقعة من "الخَزْنَة" إلى "قصر البنت" وصولاً إلى "الدَّيْر" في الأعالي، وحين مرَّ "صالح" بمحاذاة الطريق التي تؤدي إلى "جبل هارون" مال إليه "غاريث" هامساً:

- **أرجو ألّا تشعر بأيّ انزعاج من قُدومك مُجدَّداً قرب هذه المنطقة التي شهدتْ حادثة سقوطك..يُقال إنَّ أفضل شيءٍ للتغلّب على الخوف من أمرٍ ما هو مواجهته.**
- **هل تصدق بأنَّي شعرت بالتوتُّر لأنَّي تذكرت تلك الليلة. ارتعشت قليلاً ليس من الخَوف بل من أثر تلك الذكرى وتفاصيلها المؤلمة، لكنّي في أعماقي سعيد بأنّني عدت مُجدداً وواجهت المكان.**
- **بالمناسبة منذ استيقظت هذا الصباح و أنا أفكّر بالموضوع الذي اقترحته عليّ. أعتقد أنَّ الأمر يستحقُّ المحاولة..لنفكّر بشكل جدَّيّ فربَّما نكشف للعالم شيئاً لم يره من قبل. ولكن لا تستعجل. دع كلّ شيء يأخذ وقته من البَّحث والتقصّي.**

بدتْ ابتسامة زهو على وجه "صالح"، وتأكَّد تماماً أنَّ أثر الشَّراب كان سيئاً على "غاريث"ليلة أمس، وها قد زالَ الآن، واقتنعَ بأفكاره أخيراً.

بيعُ الوهْم للمُستَلبين الصِغار

كانت خطَّة عمل الفيلم تقتضي بقاء "صالح" مع الفريق في "البَتْراء" بعد انتهاء التَّصوير لأيامٍ قليلةٍ أُخرى ثمَّ العَودة إلى "عمَّان"، لكنَّ هاتفاً طارئاً من أمّهِ جعلهُ يستأذن رفاقه، ويغادر إلى بيتهم في "الزَرْقاء"، فقد جاء صَوتها متهدّجاً، ولم يفهمْ الكثير ممَّا قالته إلَّا جملة واحدةً ظلَّت ترنُّ في رأسه طويلاً:

- **أخوك حسن في السّجن**.

ما الذي حصل بالضَّبط وقاد إلى سِجْن أخيه الأصغر؟ ولِمَ تطلب أمُّه منه بالذَّات أن يتدخَّل لحلّ المُشكلة؟ وماذا عن دور أخيه "محمود" الضَّابط؟ هل من المعقول أنَّه لم يعرف بهذه الكارثة إلى الآن؟

راحتْ الأسئلة المُدجَّجة بالقلق تَنهشُ أعماقه، وهو يُحاول أن يبحث عن إجابات لها عبر الطَّريق الطَّويل من "العَقَبَة" إلى "الزَرْقاء":

تُرى ما الذي فعله "حسن" الَّذي لم يكدْ يُكمل السَّنة الأولى له في الجامعة؟ من المُؤكَّد أنَّ الأمر له علاقة بـ "النّمْس" رغم أنَّ أمَّه لم تُفصح له عن أيَّة تفاصيل، واكتفت بضرورة أنْ يحضر.

في طريقه إلى غُرفة "غاريث" في تلك الليلة، لا يدري كيف وثبتْ إلى ذاكرته صورة هذا الكائن الذي يرى العالم باللونينِ الأبيض والأسود، حينما زاره في البيت للمرَّة الثَّانية، وذلك الحوار الصاخب لأفكاره الكارثيَّة التي تُحاول الانتقام من العالم كلّه لصالح نظرته الضيّقة التي تجعلُ الحياة على الأرض جحيماً لا يُطاق.

كانتْ زِيارته هذه المَرَّة برفقةِ أخيه الأصغر كعادته، لكن دون أيّ أحدٍ آخر من حاشيته، فهو يَهبط مثل المصائب فجأةً. منَ المُؤكَّد أنَّ أخاه هو من أخبره عن وجوده في البيت رغم تحذيراته له من قبل ألَّا يعطيه أيَّة معلومة تخصُّه، لكنْ ما العمل مع مُراهق في بداية الشباب وجد في "النّمْس" أو النسخة الجديدة منه "أبوحذيفة" شيخاً عظيماً، يبيعُ أتباعه الوهمَ في أنّه سيُعيد أمجاد "الخِلافة الإسلامية" إلى الأُمّة المَهزومة، ويرغب في أن يُطهّر العَالم أجمع ممَّن يختلفون مع أفكاره؟!.

أدرك أنّ أخاه المُستلب بحاجةٍ إلى "غَسيل دِماغ" مُضادٍ بدل ذلك التَّلف الذي أحدثه شيخُه المُضلّل، لكن من يتنطَّع لمثل هذا الأمر؟ والحيُّ كلُّه بل جزء كبير من المدينة كما يبدو قد أصبح موبوءاً بثقافةٍ تنتصرُ للموتِ على الحياة!

لم يكن "صالح" يمتلك أساساً القُدرة على التَّنْظيرِ والجِدال وكثرة النّقاش في هذه الموضوعات، أو حتى طول البال والحِلْم.

خلال زيارة "النّمْس" الأولى لهم عرف الكثير عن شخصيته الإقصائيَّة. من الواضح أنّ هذا ما جعله يستفسر أكثر عنه لاحقاً، ليكتشف بأنَّه "أمير" مجموعةٍ من التَّابعين له والمُؤمنين بفِكره في حيّهم وما جاوره.

في زيارته الثانية خَصَّص وقتاً طويلاً لموضوع الجِهاد في سوريا داعياً إلى **"ضرورة نُصرة إخواننا المُجاهدين بكلّ نَفيس ضدَّ النُصيريّين الكَفرة"**. ولم يكن لدى مُضيفِه من خَيار غير هزّ رأسه بين الحين والآخر، أو الحوقلة، ولا يدري كيف عرَّج على عمله في قِطاع السّياحة، وتعامله مع الأجانب من "النصارى الكفار" كما أسماهم، وحين حاول "صالح" أن يشرح له بأنَّهم أصحاب رسالة سماويّة، والإيمان بكتابهم وبرسولهم فرض على كلّ مُسلم، مع ذكر بعض الأمثلة من الآيات القليلة التي يحفظها من القرآن بهذا الشأن، قاطعه بحدَّة:

- **يا شيخ الله يهديك، أنتَ لم تقرأ التَّفاسير جيداً لهذه الآيات، ولا تُفرّق بين النَّاسخ والمَنْسوخ، فكلُّ ما ذكرته تمَّ نسخه بآية السَّيف. ألم تسمعْ قول شيخ الإسلام ابن تيميَّة "من لم يُحرّم التديُّن بعد بعثته صلى الله عليه وسلم بدين اليَهود والنَّصارى بل من لم يُكفّرهم ويُبغضهم فليس بمسلم باتّفاق المُسلمين، إنَّ اليهود والنَصارى كفارٌكفراً معلوماً من الدّين بالضَرورة". فهل بعد هذا الكلام كلام؟**

ورغم منحهِ له لقب "شيخ" على سبيل التَّهكُّم، وتخفيف الأجواء الحادَّة، وطمعاً كما يبدو في تسليمه له، فقد كان تهديده واضحاً ليحسم الأمر، ولا يناقشه مُجدَّداً في القَضايا الدينيَّة مع ضرورة أن يتأكَّد أيضاً أنَّه قد اقتنع برأيه تماماً.

ثم شعر به وهو يُدقّق في لحيته وشاربيه الحليقين، كما لو أنَّه قد ضبطه مُتلبّساً بالتشبّه بالأجانب والكفّار **"والعياذ بالله..وهذا لا يجوز يا أخي"**. مع ذلك أخبره أنَّه لا مانع عنده من أن يكسبَ ثقتهم، ويعرف أحوالهم وخططهم "فمن تعلَّم لغة قومٍ سلم شرَّهم"، دون أن يتورَّط في مُجاراتهم للولوغِ في المُحرَّمات مثل شرب الخمر، أو الخّلوات غير الشرعية.

أبلغه أيضاً أنَّه سيكون له دور في قادم الأيَّام، ومن الضَّروري أن يحرص على الصَّلاة في المَسجد ما دام قد تخلَّى عن الجَبيرة، وأصبح يتحرَّك بصورةٍ أفضل مُعتمداً على العُكَّاز.

راحَ "صالح" يحدث نفسه بشأن ما جرى في ذلك اليوم، ويحاول أن يفهم شيئاً مما كان يدور حوله:

"...من الواضح أنَّ هذا المَأفُون الَّذي أصبحَ "شيخاً" بين ليلةٍ وضُحاها، قد استبدل عُنفَه الفطريّ في الحيّ بعنفٍ فكريٍّ وماديّ تجاه العالم كلّه، ولا بدَّ أنَّه يُخطّط لشيءٍ ما. زياراته لي ليست "لسواد عينيّ" كما يقول مثلنا، في النهاية أنا أعرف نفسي جيّداً، ولا أصلح للتورّط في مثل هذه الأفكار المُنْغلقة الَّتي تُقَسّم العالم إلى

فريقين واحدٍ في الجنَّة والآخر في الجَّحيم، كما أنَّ طبيعتي الانفتاحيَّة مُنذ الصغر، والتربّي في بيت تقوم أُسسهُ على الاعتدال، لا يمكن أن تَقودني إلى الانعزال والتَّديّن الحادّ.

ما الذي يسعى "النّمس" إذن مع جماعته إلى تحقيقه؟

وما هي طبيعة تحرّكاته تحت الأرض لنشر أفكارهِ التَّدميريَّة للمُجتمعات؟

لست أدري بالضبط.

ثم هل من المعقول ألّا تكون تحرُّكاته مرصودة من قِبَلِ أجهزة الدَّولة أصلاً؟

أستغرب أنَّه ما يزالُ يتحرَّك بسهولةٍ بين النَّاس، ويدعو إلى أفكاره العَنيفة، ونشر ثقافة المَّوت، وتكفيرِ الدَّولة ومن يعمل فيها، وبعض أهل البلاد من أصحاب الرّسالة المَسيحيَّة الذين يَعيشون هنا منذ آلاف السّنين.

يكادُ كلُّ شيءٍ في عُرْفِه يبدو حَراماً، إذ يجد له مِثالاً من التَّاريخ الذي وصلنا، وإن لم تُسْعفه آية يجد حديثاً، أو قولاً مأثوراً، أو خبراً منقولاً عن فلانٍ وعلاَّن، أو حتى حكاية مبنية للمجهول بطلها أعرابيّ.

أحيانا يُحيل الأمر إلى شيخِه الأثير "ابن تيميّة"، أو إلى شيوخه الذين من هذا العَصْر، فالموسيقى حرامٌ في عُرفه، والغِناء أيضاً، والعمل في دولةٍ ليس شرعها إسلامياً على مِنهاج الخلافة حرام، والعيش في البلدان "الكافرة" مثل أوروبا وغيرها حرام، ومن لا يذهب إلى الجِهاد في سُوريا والعِراق وحتَّى الشّيشان، ويناصر المُجاهدين فقد مات على شعبة من النّفاق، ومأواه النَّار وبئسَ المصير، ومن لا يكون مع الفرقة الناجية، أي حزبِه الضَّيّق نفسه، وجماعته التكفيريَّة فهو في النَّار، والقُروض من البنوك حَرام، وإذا خرجتْ المرأةُ من بيتها بدون حِجاب فهي زانية، وإنْ تعطَّرت فهي زانية أيضاً، وإن عملت بعيداً عن البيت فزوجها ديُّوثٌ

يقبل أن تختلط بالرّجال، وإن لبس الرّجلُ بِنطالاً قيل إنَّه يتشبّه بالكُفَّار، وإن لبس ثوباً أبيض ناصعاً، ولم يكن قصيراً فوق القدم بشبر، فهذه الإضافة نوعٌ من الخيْلاء وتقود إلى النَّار....، وقس على ذلك من التضييق على الناس في حياتهم اليومية، وتنفيرهم من الله، بحيث غدا الدّين الذي يفهمه ويدعو إليه عُسراً وليسَ يُسراً، وضَيّقاً مُنفّراً، وليس واسعاً مُبشّراً..!

واصل "صالح" حديثَه لنفسهِ، وتَشعَّبت تساؤُلاته محاولاً أن يفهم شيئاً ممَّا جَرى:

من أين خرج علينا مثل هذا "النّمس" الذي لن تشفعْ له عُطوره الباكستانيَّة الثَّقيلة، أو تَقواه الظَّاهريَّة المُغلَّفة بالخِداع، ولا حتى اسمه الجديد الرَّنَّان "أبو حذيفة" في أن أتقبَّل شيئاً من أفكاره، أو أن استسيغ خُطبه المُدجَّجة بالخرابِ والكراهيَّة؟

صحيح أنّ علاقتي بالدّين، كما يراها أخي حسن، هُلاميَّة، و أنَّي أتهاونُ في الصَّلوات أحياناً، وغير ملتزمٍ في نظرهِ بجماعة، وأختلطُ أحياناً مع "رُفقاء السُّوء". بالطَّبع لم أسمعْ رأيه هذا بشكلٍ مباشر، إنَّما صرَّح به لبعض أخواتي، فقد كان فارق السنّ بيننا يُلْجِمه عن التَّمادي، ويمنعه من النِقاش معي في مثل هذه الموضوعات، ربَّما لأنَّي أيضاً بمثابة الأب له أحياناً، ولم أكن أبخل عليه ببعض النُقود لدراسته ومصروفه اليوميّ كلَما تحسّنت ظروف عملي.

لأجل ذلك كلّه أصبح يصرُّ على أن "يهديني" إلى الصِراط المُستقيم على طريقته، ويأتيني بشيخهِ إلى البيت لعلّ حجَّته أقوى، وخبراته في هداية العاصين من أمثالي أشدُّ تأثيراً.

يعترفُ صالح بتقصيرِهِ عن مُتابعة أخيه الأصغر، فقد كان كثيراً ما يُمضي وقته خارج البيت بسبب طبيعة عمله المتقلّبة، ومزاجه الذي يكره التِكرار، والحياة الاجتماعية الرتيبة.

بالنسبة لأخيه "محمود" فإنَّ عمله ضابطاً في الشرطة، يقتضي الغياب عن البيت لفتراتٍ طويلةٍ أحياناً؛ حيث قاده هذا العمل برُفْقة أسرته إلى مناطق عديدة وبعيدة مثل "مَعان"، و"إربد"، وأحياناً كان يَزورهم مرَّة في الشَّهر، إضافة إلى مشاركته في المُناسبات العائليَّة والأعياد. يستطيع أن يتخيّل ردَّة فعله الغاضبة إن عرف عن زيارات "النّمس"، وتورّط "حسن" في التَّواصل معه، لا سيَّما إن اكتشف بأنَّ هذا المُتطرّف يعتبرُ أيَّ رجلٍ يعمل في الحُكومة كافراً، فما بالك إذا كان رجل أمنٍ.

شعر بأنَّ عليه أن يتّخذ موقفاً حاسماً بشأن النّمس وجماعته "قبل أن يقع الفأس في الرَّأس" ويجري ما لا يمكن توقعه، لهذا قرر في داخله توبيخ "حسن" على ما فعل، وأن يُخبر "محمود" بشأن ما يجري في الحيّ من الأفكار المُتطرّفة التي تُناقض الحياة، ويسمع رأيه في الأمر، لكن تلك الفرصة لم تأتِ للأسف، إذ غادر البيتَ بعد التَّعافي مُباشرة إلى "البتراء" ليلتحق بـ "غاريث" وفريقه.

شعرّ بأنَّها فرصة عظيمة للتخلّص من كوابيس الحيّ الموبوءِ بالأفكار السَّوداويَّة ولو إلى حين، والعودة من جديد لمعانقةِ الحياة بكلِّ ما فيها من جمال لأوَّل مرّة، بعد تلك النَّقاهة القَسْريَّة حتى جاءه صوتُ أمّه بين الحزم والرَّجاء بضرورة عودته إليهم بسرعة.

حين وصل هناك أحسَّ بأنَّ بيتهم في "حالة طوارئ"، فأمّه مُثقلة بالهموم والبكاء، وبقية إخوته وأخواته في حالة وُجوم. استطاع أن يفهم من جملهم المُقتضبة والمُتداخلة أنَّ رِجالاً من الأمنِ قدموا ليلة أمس في وقت متأخر

واعتقلوا "حسن"، وأنَّ الأخبار تقول إنّه تمّ القبض على "النّمس" أيضاً وعددٍ آخر على خلفية توجُّهاتهم المتطرّفة.

بدأ أولاً بالاتصال بأخيه الأكبر ليستفسر منه عمَّا جرى، وليطلب نصيحته، قبل أن يذهب بنفسه، ويبحث عنه في مراكز الشُرطة أو الُسجون.

فهم أنّ والدته قد اتصلت بأخيه أيضاً من قبل، وأنَّ العائلة أرهقتهُ بالاتصالات. ظهرَ ذلك واضحاً من ردّهِ المليء بالانزعاج، خُصوصاً أنّه يعمل في أحد مراكز الأمن في المحافظات بعيداً عن مركز القرار، وأنَّه سيضطر لإجراء اتصالات مع زملائه في مراكز أخرى ليتابع القضية من بعيد دون أن يستطيع التدخّل، فمثل هذه المسائل الحسَّاسة ذات الطابع السياسيّ لا تنفع فيها الوَساطات ولا التدخُّلات حتى تأخذ مجراها الطبيعيّ:

- **أخوك متورّط مع جماعة من الذين يُكفّرون الدَّولة ومن يعمل فيها. ما شاء الله عليكم تاركينه داير دون مر اقبة. كأنَّ العيلة ناقصة تكفيري. خلّي الأمور تأخذ مجراها..وأكيد الموضوع بنحل.. بس خلّيه يتربّى شوي..و أنا بتابع من بعيد.**

تحمَّل "البَهْدلة" المُبطَّنة الَّتي صبَّها "مَحمود" في أذنيه مُباشرة، وأوصل جزءًا منها إلى بقية إخوته الجالسين بتوتّر شديد بانتظار أيّ حلّ. فهم منهم أشياء أخرى منها أنَّ "النّمس" وجماعته أقاموا مهرجاناً خطابيّاً حاشداً وسط المدينة، رفعوا خلاله السُّيوف أمام كاميرات مصوّري المحطّات التلفزية في تحدّ واضح للدَّولة. قيل إنَّهم جاؤوا معهم بالبلطات والجنازير أيضاً، وأنّ صداماً جرى مع مجموعات مُعارضة لأفكارهم من المُواطنين، وحينها تدخَّل رجال الأمن وحدثت إصابات بينهم بالعشرات، ويبدو أن "حسن" قد انسحب وعاد إلى البيت لما حمي الوطيس، وفي ساعة متأخّرة من الليل جاء رجال الأمن وألقوا القبض عليه.

كانت أمّه بين الحين والآخر تُكرّر جُملتها التي أصبحت لازمة، ومختلطة بالنشيج:

- **الله يهديه ..الله يصلحه.**

ثم تعود إلى إلحاحها بضرورة أن يذهب للبحث عن أخيه، ويتفقّد أوضاعه وما جرى له.

حاول طمأنتها أنَّه بخير، ويحتاج إلى بِضعة أيام فقط ثم يخرج. مع ذلك لم تقتنع بالرد، لهذا خرج من البيت هائماً على وجهه لا يدري له مَقصداً مُحدَّداً لعلَّ والدته تهدأ قليلاً وتقرُّ نفسها المُضطربة، وتقتنعُ في أعماقها أنَّه يبذل جهداً حقيقياً في البَحث عن أخيه. أجرى بعض الاتصالات مع عددٍ من معارفه وأصدقائِه بخاصَّة من المُحامين، إضافة إلى بعض أقربائه ممَّن يعرفون "النّمس"، واستطاع بعد كلّ ذلك أن يعرف أنَّ دور أخيه كان ثانويَّاً، وتمَّ اعتقاله ضمن المجموعة التي تواجدت في ذلك المِهرجان الخطابي الحاشد الذي انتهى بالصِدام والدّماء، وأنَّ جميع من تمَّ اعتقالهم يخضعونَ حالياً للتَّحقيق في "دائرة المُخابرات"، بالتالي لا يمكن زيارتهم، فالأمر يأخذ وقتاً، وبعضهم سيتمُّ الافراج عنه ربُّما لاحقاً، وبعضهم سيتمُّ تحويله إلى "محكمة أمنْ الدَّولة" المُختصَّة بمثل هذه القضايا. كان يُعوّل كثيراً على أنَّ أخاه "محمود" سيتولَّى المُتابعة بطريقته الخاصَّة، وأنَّ على الجميع الهدوء، وانتظار الفَرَجْ.

أدرك أنَّ "حسن" في بداية منزلقٍ خطير، ومن المؤكَّد أنَّه بعد خروجه من هذه التَّجربة القاسية سيستيقظ من غيّه، ويستأنفُ دراسته، أمَّا "النّمس" فربَّما تطولُ إقامته في السّجن هذه المرَّة، فليس حساب شيوخ الجماعات والرُّؤوس المُدبّرة عند الدولة مثل حساب المُستَلبِين الصّغار الراكضين خلف السَّراب دون حول منهم ولا قوَّة.

أحوالٌ مُهشَّمةٌ

ما عاد "صالح" يُدرك جريان الأيّامِ والشهورِ، بين حياته اليوميَّة الّتي صارت تمضي في خضمّ الأحداث وتقلّباتها، وتلك الحَيَوات الأُخرى التي غدت تقفزُ إلى حاضره في أيّ لحظة لتُربك طُمأنِينته، وتعيثُ قلقاً في وَدَاعته، فما هو حال المرْءِ إذ تتداعى أمامه الأزمِنة، وتختلطُ في وعيه الأَمكنة، وتتشظَّى نفسُه بين أجسادٍ كثيرةٍ، كانتْ لها مَوئِلاً ذات أحقابٍ عديدة، حتى استقرت على ما هي عليه الآن في هذا الجسد الَّذي يُصارع الظُّروف وتبدُّلاتها، والحياة واشتراطاتها.

مرَّ عامان وَئيدان منذ سُقوطه عن ذلك الجبل تغيّرتْ فيهما أحواله، وجرتْ في اتّجاهات عديدة، يحاول أن يُجرّب لمْلَمة شتاتها، ويتذكَّر منها ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، حتى لا تختلط مع سيل الأحداث القادمة من الماضي البعيد، أو تَتسرَّب من قراءاتٍ لكتبٍ أدمن عليها، أو أفلامٍ شاهدها، أو حكاياتٍ سمعها من غيره.

سافر "غاريث" وفريقه إلى لنْدن، ولم يستطع أن يرى أحداً منهم في تلك الأيام العجفاء، ولم يكتمل مُخطَّطه الجامِح للصُّعود معه إلى ذلك الجبل مُجدَّداً، بحثاً عن الكهف السرّيّ الذي أصبحت ذكراه تنوسُ في أعماقه حتى تكاد تنطفىء. كأنَّه قادم من عالم التخيُّلات، وما ولجهُ من قبل قطّ، ولا تذوَّق عَسل جِراره.

غير أنّه تواصل معه مرَّات عديدة بعدها، فقد شاهَدَ الفيلم الذي أخرجه عن "ماغي" أكثر من مرَّة، وقد ملأته الغِبطة، كما لو أنَّه يراه بالدَّهشة الأولى نفسها، وقد علم بأنَّه توفرتْ فرصة هائلة لهذا الفيلم للمشاركة في مهرجانات سينمائيَّة دوليَّة تنشغل بالأفلام الوثائقية، ونال في عددٍ منها التكريم، إذ بدا واضحاً للجان التَّحكيم

علوّ إبداع فريق العمل في هذا الفيلم، وجمال صِياغته البصريَّة، وعُمق فكرته التي تربطُ الغرب بالشَّرق من خلال هذه المرأة الأوروبيَّة التي أصابها هوسُ المكان، وعانقها فيه دفء الانسان، فبدَّل مجرى حياتها تبديلاً.

أرسل له "غاريث" بعد عودته رسالة عبر بريده الإلكترونيّ يسأل فيها عن أحواله، فقد استبطأ تواصله معه، ولمْ يدْرِ أنَّه كان غارقاً حينها بحلّ مشاكل أخيه الشائكة، وتتبّع ما سيؤول إليه مصيره من السّجن أو الإفراج.

"عزيزي صالح... أمَّا بخصوص ما أخبرتني عنه تلك اللَّيلة من الأحداث الغريبة أو الكوابيس الَّتي صرتَ تراها أو تشعر بها كأنَّها قادمة من الماضي البَعيد، فقد سألتُ بعض الأصدقاء المُهتمّين بمثل هذه الأمور هنا، وقد نصحوني بأنّ أقوم بزيارة إلى "الجمعيَّة الروحيَّة البريطانيَّة"، لأستفسر عن الأمر، وهم يُفضّلون أن تكون موجوداً، إن استطعت إلى ذلك سبيلاً، فُهنا خُبراء في مثل هذه المَسائل الغامضة، لكن معظم من سألت من أصدقائي الى حدّ الآن تحدَّثوا عن أنَّ تلك السَّقطة التي أصابت رأسَك، ربما تكون قد أيْقظتْ ذاكرتك البعيدة، فانفتحت على بعض حيواتِك السَّابقة، الَّتي قد تكون مررت بها من قبل أو عِشتها، أو مرَّ بها أجدادك، فخلايا الدّماغ المُتوارثة قادرةٌ على حِفظ كلّ تراث من جَاء من قبلك من أسلافك السابقين، وأنَّه يُمكنك الوُصول إلى هذه الحالة مُجدَّداً، واكتشاف بعض تفاصيلها إن رغبت عبر "التَنويم المِغناطيسيّ". هذا ما فهمته منهم يا عزيزي، واعذرني على عدم اهتمامي بوجودِ حَيواتٍ أخرى سبقت هذه الحياة للمرءِ أو يمكن أن تأتي بعدها، فأنا من النَّوع الَّذي يعيشُ حاضره وينغمس فيه تماماً".

لمْ يدرِ بماذا يردُّ عليه حينها، فهل يحدّثه عن انشغالاته في بيتهم بكوارث أخيه، أو يسأله عن إمكانية السفر إلى "بريطانيا"، ولو على سبيل السّياحة، فقد أرهقته الأَمكنة الَّتي يتحرَّك فيها، والمُواضعات الاجتماعيَّة البليدة التي يضطرُّ إلى التَّورُّط فيها مهما حاول التَّهرُّب منها.

مع ذلك كتب له ردّاً سائلاً فيه عن أحواله، وأنَّه يطمعُ أن يراه هنا مُجدَّداً ذات يوم، أو من يدري فقد تُتاح له الفرصة للسفرِ إلى "لنْدن" في قادم الأيام:

"من المُؤكَّد يا عزيزي أنَّ موضوع مُقابلة المُتخصّصين في "الجمعيَّة الروحيَّة" في بلادكم أمرٌ يروقُ لي كثيراً، رغم أنِّي أتخيَّل كثيراً بأنَّ ما يجري معي لوثةٌ في خلايا الدّماغ، أو تهويماتُ حالمٍ، أكثر ممَّا أذهبُ بها بعيداً إلى جوانب روحيَّة لا انشغالات لي فيها من قبل، ولا مَعارف أو خبرات؛ إذْ لم أكن في يومٍ من الأيَّام مُهتمَّاً بمثل هذه المَسائل، وليست طبيعتي أيضاً تتقبَّل تفسيراتها، خُصوصاً مع انغماسي في الحياة اليوميَّة بكلّ تفاصيلها، كما أنِّي لستُ بعيداً أيضاً عن طريقة تفكيرك في هذا الموضوع؛ إذ إنِّي لا أفكر كثيراً بما قبل الحياة، ولست منشغلاً بانتظار ما بعدها كما أخبرتك. أنا أعيش فقط على ذِمَّة الحياة نفسها حدَّ الثُّمالة".

***

قضى "حسن" شهراً في السّجن من أجل استكمال التَحقيقات معه. بعدها عادَ إلى بيتهم ذاوياً، وصامتاً أغلب وقته. ربَّما تمَّ إطلاق سراحه من كَثرة الجُهود الَّتي بذلها إخوته، وإراقة ماء وُجوههم أمام المَسؤولين، ووسَاطات رجال العشيرة، إضافةً إلى توكيل المُحامين من أجل ألَّا تُسجَّل في حقّه تُهمة قد تُدمّر مُستقبله الجامعيّ على أن تتمَّ كفالته لئلَّا يُصاحب تلك العُصْبة مُجدَّداً، ويعود إلى دروسه "بعيداً عن أيّ نشاط مشبوه".

لحسن حظّ العائلة فقد شكَّلت هذه التَّجربة صدمةً ضرويةً للجميع، فقد استيقظ الشَّاب اليافع على إثْرها من غيبوبته الفكريَّة بشكل تدريجيّ. ظلَّ مُعتكفاً في البيت فترةً من الوقت بعد خروجه من الاعتقال، وأدرك

جميع من حوله بأنَّه قد بدأ بتغيير أفكاره، والالتزام في المُحاضرات الجامعيَّة فقط، والتخفيف من التديّن الحادّ، والآراء العاصفة الَّتي طرأت عليه، إذ إنَّ التأثيرات المُباشرة قد زالت مع بقاء شيخهِ حبيسَ السّجن لأكثر من عام، والذي سُرعان ما جاءت الأخبار لاحقاً عن تسلّله إلى الأراضي السُّورية بعد إطلاق سراحه ليلتحق بإحدى الجماعات المُسلَّحة الَّتي تقاتل هناك، حيث انقطعت أخباره تماماً حتَّى وقت قريب حين ظهرَ في تسجيل "فيديوي" عبر الإنترنت، وهو مُحاط بعددٍ من عُصبته المُتطرّفة، وهو يُهدّد بأنَّه سينقل المعركة إلى "الأردن" عمَّا قريب.

شعرَ "صالح" بأنَّ العائلة كلَّها قد تنفستْ الصُعداء مع رجوع "حسن" إلى حياته الاعتيادية، ومغادرة "النّمس" الحيّ بشكل نهائي، ومع التَّهديدات الَّتي وجَّهها لبلده قامَ رجالُ العشيرة بعقدِ اجتماعٍ حاشدٍ، أصدروا خلاله بياناً للبراءة مِنه، وأنَّه لا يُمثّلهم من قريبٍ أو بعيد، وتمّ نشر البيان في وسائل الإعلام على نطاقٍ واسع:

"إنَّ أبناء العشيرة يقفونَ جميعاً صفَّاً واحِداً في وجه مِثل هؤلاء الخوارج الخونة، ويدافعون عن الوطن بالغالي والرخيص، وهم مُستعدون لبذل أرواحهم في سبيله..".

فارسٌ ينتظر خَلاصَه

انتظمتْ أيَّامُ "صالح" في شقّته الصَّغيرة بالعاصمة، إذ غدا فيها بمُفرده بعد رحيل رفيقه الذي كان يُشاطره نصف تكلفتها، أمَّا زياراته إلى "الزَرْقاء" فقد تباعدتْ لانشغاله بعمله الجَّديد باحثاً في مركز مُتخصّص للدراسات والتوثيق بالعاصمة، إضافة إلى لقاءاته التي تكثَّفت مع "أليس" بحيث راحت تُشاركه كثيراً من تفاصيل حياته.

بدت العلاقة بينهما لا هي بالحبّ الخالص، ولا بالشَّهوة العابرة، ولا يُمكن أن تَنْدرج أيضاً تحت بند الحُنوِّ الإنساني فحسب، ولا حتَّى التوافق الفكريّ. هي تجربةٌ جديدة، ومزيج من كلّ ذلك، لم يختبر مثلها من قبل فيما عرف من نِساء.

"أليس" التي شهدتْ ذات يوم، ورأسُه في حِجرها، تلك الحالة العاصفة الَّتي هاجَمته بشراسة، وسيطرتْ عليه لدقائق قليلة، بَدَتْ لها زمناً طويلاً، كأنَّها تُذكّره بأنَّه لم يُشْفَ بعد من تلك الحالات الَّتي داهمته في الماضي، بل أصبحتْ تُزلزل أعماقه في أيّ وقت، فتُسبّب له المَزيد من القلق والاحراج.

كان ينظر إلى سقف الغرفة من خلال ما يتدلَّى على وجهه من خُصلات شعرها الأشقر، مُحاولاً أن يرتاح ولو قليلاً من تعبِ قرونٍ طويلةٍ تجثمُ على صَدره، فيرى فوقهُ تَماماً مِروحةً مُعلَّقة تُحاول جاهدةً تبديد تيَّارات الهواء الثَّقيلة، وتلطيف الحرارة اللَّاهبة.

لم يعد يذكر حواره معها في ذلك الوقت بالضَّبط، ولا ما كانت تقوله له، وإنْ كان كلّ ما جرى بعد ذلك من أَثر نِقاشٍ حادّ بينهما، أم بعد شربه علبة البيرة الثَّالثة في ذلك الجوّ القائظ.

رأى تلك الخرائط التي شكَّلتها الرُطوبة في السَّقف على مدى السّنين، تُحاولُ أن تتحرَّك ببطء، فوق طبقة الدّهان "البيج" الكالحة، كما لو أنَّه ينظر إلى شاشةٍ تعرضُ أفلاماً للرُّسوم المُتحرّكة بالأسود والأبيض، ثم تبدأُ بالتلّون التّدريجي، واكتساب معالم أوضح، تترافقُ مع أصواتٍ مُتصاعدةٍ وغير مفهومة.

حينَ بدأتْ قطرات العرق ترشَح من جبهته المَحمُومة، وتسيلُ إلى عينيه، رأى الغُرفة قد أظلمت، والأجواء من حوله قد أقفرتْ، وكما لو أنَّه في ذلك السّجن من جديد الذي شهد بعض تفاصيله في نوباتٍ سابقة، فيما حضرَ رجالٌ غلاظٌ لسوْقه مع مجموعة من السُّجناء المُقيَّدين بالجنازير، والَّتي تُغطّي أجسادهم النَّحيفة الأسمالُ البالية.

ثمَّة رجلٌ في مُقدّمَة الجمع يظهر أنَّه موضع تبجيل منهم، يُنادونه بالمُعلّم، وقد بَدَا هادئاً وهو يُساق قَبْلهم إلى حيث لا يدرون، فقد مضت تِسع سنواتٍ على حَبْسه، وها هم تلامذته يُساقون معه منذ تمَّ القبض عليهم قبل سنة تقريباً، لكنَّ اليومَ يبدو عصيباً عليهم جَميعاً ومُنذراً بالشُؤْم. من الواضح أنَّه غير الأمس وكلّ ما سبق من الأيام.

بدأ يَعي نفسَه أكثر، فالصُور هذه المرَّة تأتي بشكلٍ أوضح، ووجوده هنا يبدو حقيقياً أكثرَ من كلّ المرَّات الَّتي داهمته فيها مثل هذه الحالات من قبل.

أدرَكَ أنَّه يعيشُ في عهودٍ غابرةٍ بمدينة "واسط" في العِراق، وأنَّه أحدُ مُريدي الحُسيّن بن مَنصور الحلاَّج. سمعَ بعض الحُرَّاس يُنادون المُريدين هازئين "يا قَرامِطة.." وأحياناً يصفونهم بالزَّنادقة. تسللتْ إلى أعماقه قُطعان الظُّلم الهائل لهذه التُّهم التي دُبَّرت بليل، و"**يعلم الله إنّه لا علاقة لنا بها من قريب أو بعيد، فلسنا غير تلامذة**

لهذا الشيخ الصوفيّ الجميل، الذي علَّمنا كيف نغرقُ في بحار المَحبَّة الإلهيّة، ونتأمَّل في آيات القرآن، لتظهرَ علينا أسرارها وكنوزها، وكثيراً ما يقرأ علينا من "طَواسِينه" فنحلّق عالياً مع لغةٍ صافيةٍ، و أنوارٍ علوية".

- **ألا يوجد فيكم رجل رشيد؟**

سمع مُعلّمه يُخاطب الذين اجتمعوا حوله من القُضاة والفُقهاء والسَّاسة الفاسِدين الَّذين يَحيكون مؤامرة محاكمته وجعْلِه من المارقين. ظهرَ كلُّ شيءٍ مُرتَّباً من قبل، واتَّضح أكثر مع إعلان القاضي المالِكي "الحَمَّادي" أنَّ جماعتهم سريَّة، ولديها أهداف لتقويض الخِلافة، وتدميرِ الكَعْبة، وهدْمِ أُسسِ الدّين، وعَجِبَ كيف انضمَّ الى الجوقةِ القاضي الحَنفي "الأَشناني"، وأزيَدُ من ثمانين فقيهاً، بل حتَّى كبير القُرَّاء "أبو بكر بن مجاهد" تورَّطَ في التَّأليب عليه، وهو المَحسوب من الأنقياء العَارفين، وحفظةِ القُرآن المُتَّقين.

ظهرَ الجميعُ واقعين تحتَ سلطة الوزير "حامد"، الذي كان غارقاً في الفَساد من رأسهِ إلى باطن قدميه، وينوءُ تحت فشل إدارة الدَّولة. لمْ يُعجبه أنَّ للمعلّم مُريدين من أهلِ القصر ممَّن يُوجّهون لهذا الوزير الانتقاد، ويكشفون فساده، لهذا فكَّر أن يتخلص منه بالسّجن تحت غطاءٍ دينيّ مَكراً وخديعة، وضربةً استباقيّة كي تُروّع المُريدين، وتجعل كلَّ من يتحمَّس له من السَّاسة ينفضُّ من حوله.

وصل صاحب الشرطة "عبد الصمد"، وتسلّم الحُكم من الوزير "حامد"، الَّذي طَالبه بإغلاظ العقوبة على رأس الفتنة، كما وصف الشَّيخ، وجعله عبرةً لمن اعتبر أمام كلّ الحضور من الخواصّ والعوام.

رأى نفسه واقفاً مُسربلاً بالقيود أمام "باب خراسان" مع بقيّة التلاميذ، بينَما وقف المعلّم غير بعيد عنهم، محاطاً برجال الشرطة، الذين ماتت في قلوبهم الرَّحمة، وقد بدأت الجماهير الغَفيرة بالتجمُّع من حولهم منتظرة تنفيذ الحكم.

بدأ أحدُ رجال "عبد الصمد" بجلدِ الشَّيخ، ومع كلّ سوطٍ يهوي على جسده الطاهر كان يقع مثله تماماً على أجسادهم. تألَّم بصوتٍ خافت، وهو ينظرُ إلى معلّمه الذي يكتوي من الألم، مُحاولاً أن يكتمَ عنه تأوّهاته ويتماسك.

"الطف به يا الله"

قال في أعماقه مُستنجداً.

نفرت دمعة من عين رفيقه الذي عن يمينه، فقال له:

"تجلَّدْ مثل شيخنا ولا تُرهم ضعفك ".

جاء السيّاف، وقد غطَّى وجهه بعمامةٍ حمراء، لم يظهر منها غير عينين جامدتين، كأيّ وحشٍ بشريّ لا رأفة في قلبه.

لم يُصدّق حين رآه يَهوي بسيفه على الذّراع اليُمنى للشَّيخ فيما نافورة دِماء تَشخَب من الفُوَّهة التي تركتها في عضده. بدأتْ الجَماهير المُحتشدة بالصُّراخ. بعضهم يُطالب بقتل الشَّيخ، وآخرون قليلون يستنكرون ما يجري، ويطلبون له الرحمة.

أهوى بسيفه من جديد ففصلَ ساقَه اليُسرى عن جسده، فتهاوى المُعلّم على الأرض، وتدفَّقت الدّماء منه بقوَّة، وهو شِبه غائبٍ عن وعيه لا يُسمع منه إلَّا التَّمتمات الوَاهية. كاد التلميذ أن يسقط على الأرض عند كلّ ضَربة، ولم تكد رجلاه تحملانه، لكنَّه تَماسكَ أكثر، وراح يدعو الله أنْ يُخفّف عن شَيخه ما يجدُ في محنته.

لم يتوقَّف الجَّزار عند تقطيع طرفي الشَّيخ من خِلاف، بل أهوى على الطَّرفين المُتَبقيين، ذِراعه اليُسرى، وساقه اليُمنى، فلم يبقَ منه إلا الجذع، فتجندَل على الأرض والدّماء تُغرقه، وراح يئنُّ بشدَّة، فيما تهاوى المريدون على الأرض، ومرَّغوا وجهوههم بالتُّراب.

عندها تمَّ رفعه على جذع نخلة، وصلبه، وهُنا تزايدت صرخات الدَّهماء من حولهم، وبدأ بعض الثَّائرين بإحراق الحوانيت المجاورة في السُّوق احتجاجاً، فيما رجال الشُّرطة يقومون بمطاردتهم.

نظر المُعلّم المِصلوب إلى من حوله وابتسم. سمعه يقول بصوتهِ الواهن لمن حوله:

- **اقتلوني يا ثِقَاتي...إنَّ في قَتلي حياتي..!**

طأطأ المُريدون رُؤوسهم خَجلاً وحُزناً؛ إذ لا حيلة لديهم على عمل شيءٍ، ولا حتّى افتدائه بالمُهج.

أصرَّ صاحب الشُّرطة على إبقاء الجَسد مصلوباً حتَّى الصَّباح، مؤجّلاً ضربة الرَّحمة إلى اليوم التالي حتَّى يتدبَّر حضور الشُهود، وقراءة الحُكم الذي وقَّعه "الخليفة المُقتدر".

بقي التلامذة المُثقلون بالسَّلاسل والفجيعة في المكان نفسه طيلة الليل، وقد تكوَّم بعضهم إلى جوار بعض من الإنهاك والقهر، فيما جسد المُعلّم المُقطَّع الأطراف أمامهم يرشح دماً، ولا قدرة لهم على فعل أيّ شيء.

قال بعض رفاقهم حينها من أثر الحزن والغضب والقهر:

- **وما صلبوه وما قطَّعوا أطر افه، ولكن شُبّه لهم.**

قال لهَم مُعلّمهم كلاماً كثيراً تلك الليلة، نسوا بعضَه وحفظوا بعضَه، وهمْ بين الإغفاءة واليَقَظَة.

انتبه الجميع على لسعات أشعَّة الشمس وهي ترتفع بشدَّة، فيما أصوات العامَّة قد بدأت بالثَّرثرة، وقد عادوا إلى التَّجمْهر من حولهم مُبكراً. لم يمرَّ وقتٌ طويل حتَّى جيء بشهود الزُّور من فقهاء الفتنة والقتل.

قال رجل من الحاشية للجماهير:

- **ردّدوا معي: مَولانا الخليفة بريءٌ من دمه...الوزراء بريؤون من دمه...صاحب الشُّرطة بريء من دمه.**

كانوا يُردّدون تلك العبارات مثل البَّبغاوات خلف ذلك الرجل المُحتال، حتى يجعلهم يتحمَّلون وزر قتله أمام المُحتشدين، ويُبرّىء الدَّولة من دمه.

بدت الأجواء من حولهم في قمّة توتّرها، وجماهير العوامّ تصرخ، وأطرافُ الشَّيخ تنزُّ ما تبقى في جسده من دماء، فتثير في هؤلاء الشِّرذمة المزيد من الرغبة بالقتل، وحين بلغ الهيجَانُ عند هؤلاء الحضور مبلغاً عظيماً، بدأوا بالصياح:

- **اقتلوا هذا الزّنديق..ففي قتله صلاحُ المسلمين..ودمُه في رِقابنا.**

وصاح آخرون وهم يشيرون إلينا:

- **و اقتلوا هؤلاء الأتباع حتى تتطّهَّر أرضنا من رِجسهم.**
- قال الشيخُ حينها:
- **اغفرلهم يا ربّ فإنّهم لا يعلمون.**

هوى الجّلاد بالسيف على عُنق الشَّيخ فتوقَّف لسانه عن التَّسبيح، وتدحرجَ رأسه إلى الأرض.

هوى التلاميذ جميعاً على الأرض حينئذ يُعفّرون رؤوسهم بالتراب حُزناً وكَمداً.

يُقسم المريد أنَّه رأى نُوراً ساطعاً أغشى الأعين، وهو يخرج من الجَّسد الذَّبيح باتّجاه السماء، لكن صاحب الشرطة لم يتوقَّف عند ذلك، بل أمر رجاله بحمل الرأس المَقطوع فوق رمح لتراه الجَماهير المُحتشدة، ثم جيء بحصيرة من سعف النَّخل لُفَّ فيها الجسد، وقام بعض أعوان صاحب الشرطة بصبّ النَّفط عليه، وأشعلوا فيه النيران.

صرخ بعض الشِرذمة من أعوان السُلطان المضلَّلين، ورائحة شواء الجسد الطاهر تملأ أنوفهم، فتقودهم إلى الجنون:

- **ذُرُّوا رماده في دِجلة، ولا تُبقوا له قبراً يزوره أتباعه من بعد..!**

بعد كلّ هذا التعذيب الذي طال التلاميذ برؤية شيخهم يُقطَّع أمامهم ويُحرق، بدأوا بجرّهم واحداً واحداً إلى حتفهم، وآخر ما رآه المُريد حين وضعوا رأسه على النّطع شُعاع الشمس، وهو ينعكس على شفرة السَّيف الذي يهوي عليه.

خيطٌ من الضَّوء وسْط العَتْمة

مع لقاءاته المُتواصلة بـ "أليس" غدتْ عمَّان أكثرَ بهجةً واحتمالاً في نظر "صالح"، بل أصبحَ يشعر أنَّ للحياة طعماً آخر غير ما عهده من قبل، وهو يكتشف تلك المشاعر البِكر الَّتي تنمو في أعماقه، فتُوقظ فيها حدائق الغِبْطة الَّتي لم يُجرّب مثلها من قبل.

هل يبدو الأمر خادعاً مثل كلّ مرَّة يتعرَّف فيها على امرأة، فيظنُّ أنَّه أصبح يمتلك العالم بين يديه، فيما تأخذه الأحلام بعيداً، حتى يسقط أخيراً على أرض الواقعِ الصَّلدة ويتهشَّم؟!.

لم يعد مُتأكّداً من ذلك حقّاً، ولا يُفكّر أساساً في تحليل هذه العلاقة، كما كان يفعل في السَّابق بعلاقاته كلّها كأنَّه أمام معادلة رياضية، لا تحكمه فيها إلَّا المصالح الآنيَّة، إذْ يُسيطر عقله على عاطفته عادةً بشكلٍ شرسٍ فيبُوء بالخُذلان، ولا يشعر بالفرحِ العفويّ وهو يتدفَّق في داخله بسَلاسَة، بل يقع تحت سَطوة المُتع المُسْتعجلة الَّتي سُرعان ما تتبخَّر، فيغوص عميقاً بعدها في مُستنقع الكآبة.

بوجود هذه الشَّقراء قُربه لم يكن الأمر كذلك. شَعر بأنَّها امرأة تُشبهه كثيراً رغم أنَّها قادمة من حضارة أُخرى، وتفاصيل حياتيَّة مُغايرة تَماماً لما نشأ عليه. كأنَّهما يعرفان بعضهما بعضاً من قبل. هذا ما هَجَسَ به في داخله حين رآها أوَّل مرَّة في "البَتْراء".

ظنَّ هذا الأمر حينها نتيجة اشتعالاتٍ كيميائيّة لجسديهما تُحاول أن تُقرّبهما من بعضهما، أو ربَّما قادمة من رغبات دفينة في أعماقهما تسعى لردم الهُوَّة بين الشرق والغرب. قد يكون ذلك منطقياً على الأقل من جِهة

"أليس" الغارقة في دراسة لغته، والتعرّف على ثقافة شعبهِ بشَغف، لكن ماذا عنه إذْ من المُمْكِن أن يتخيَّل أسباباً كثيرة، حتَّى لو شَطَحَ باتّجاه الأرواح المُجنَّدة الَّتي تتعارف فتتآلف، أو تقارُبِ الأبراج الفلكيَّة كما حدثته صديقة لهما في عمَّان ذات يوم انشغلتْ بقراءة الأرقام المُستنْبطة من تاريخ ميلاد كلّ واحدٍ منّهما، وقراءة خريطة كَفَّيْهما، فاكتشفتْ أنّ بينهما توافقاً كبيراً، ومُستقبلاً مشرقاً.

في النهاية ليس يدري حقاً، وربَّما لا يرغب أيضاً إلا في الغرقِ أكثر في عالم هذه المَّرأة حدَّ الثُمالة دون الكثير من التفلسف، والتمْحيص، والتَّحليل، والتفكير الذي يُفسد كلَّ شيء.

يذكر أنّه في لقائِه الأوَّل بها في عمَّان، اختارتْ مَقْهى "الرَّشيد" الشَّعبيّ المُطلّ على نبْضِ المَّدينة، وقاعِها القديم حيث يقصده الأَجانب عادَةً، ربَّما لتاريخه العريق، أو لأنَّ إيقاع الحياة الحقيقيّ للمدينة يمرُّ من تحت شُرفته كما أخبرته.

تحدَّثا حينها كيفما اتَّفق عن جوانبَ ثقافيَّة للمدينة، وعن تاريخ المَنْطقة، وأشياء كثيرة، حتى شعرَ بذلك اللقاء - لأوَّل وهلةٍ - جافَّاً ثقيلَ الوَطْء، وأنَّهما لن يلتقيا بعده مُجدَّداً.

حين بدأتْ الحديث عن هِواية التَّصْوير الَّتي تُشغل وقتها، وأنَّ لديها عِشْقاً لالتقاط صُورٍ لوجوه النَّاس، وتعبيراتهم في الحُزْن والفَرح، والكآبة، وتفاصيل الحياة اليوميَّة لهم، وهم في حالةٍ من الانشغال في أماكن عملهم، أو إنجاز حِرَفِهم اليدويَّة، إضافة إلى رصْدِ الجانب الشَّعبيّ لهم، والتنوُّع في الطَّعام والأَزْياء، شعرَ بأنَّ الجَبَل الجليديّ الجاثم بينهما قد بدأ بالذَّوبان.

راحَ يَستفسر مِنْها عن تفاصيل كثيرةٍ في فنّ التَّصوير الفُوتوغرافيّ، وكيفيَّة الإضاءة، وأنواع العَدَسات، وطريقة اختيار زوايا اللقطات، ومُعايرة وُضوح المسافات، عدا عن الموضوعات التي انشغلت بها في الأردن، والأماكن التي وثَّقتها بكاميرتها إلى الآن.

اكتشف أنَّها شعرتْ مثله بالرَّاحة لمثل هذا الحِوار، وبدتْ أكثرَ عفويَّة وقرباً منه، وأنَّ الجلسة التي كانت على وشك الانفضاض قد تجاوزت خطَّ الأمان، لهذا بدآ معاً في المرحلة الثَّانية من التَّعمُّق في التَّعارف، وهي تُحدّثه باندهاش طفلةٍ لم تكبُر بعد عن الأمْكنة الَّتي وصلتها، والأَرشيف الضَّخْم من الصُّور الُّتي لديها.

في اللقاءات الكثيرة اللاحقة، وتواصلهما العفويّ، واقترابهما من بعضهما أكثر، زارا مقاهٍ كثيرة معاً، ومطاعم وحانات في العاصمة وما حولها. لم يكن يعرف بوجود بعضها من قبل، لكنَّ "أليس" كانت خبيرةً أكثر منه في تلك الأمْكنة القابعة في أطراف المدينة، أو على سُفوح جبالها، وزوايا طُرقها المُتعرّجة، وحتى في سُهولها باتّجاه المطار، أو غربها على طريق "وادي السَلْط".

بَدَا مُبتهجاً وهو يُرافقها في كلّ مرَّة لزيارة مُدنٍ، وقرى، وبوادٍ، ومُخيَّمات، في شمال البلاد، وجنوبها، وشرقها، وغربها، التقطتْ خِلالها ربَّما عشرات الآلاف من الصُّور بكاميراتها الرقميَّة المُتنوّعة راصدةً في بعضها موائد الأهالي اليوميَّة، وقسمات وجوهِهم، وملابسهم الشعبيَّة، ومِعمار بُيوتهم، وحيواناتهم الأليفة، ومواسم الزّراعة، وجني الثّمار، والحَصاد، وأحياناً الأعراس التي كانوا يمرُّون ببعضها دون أيّ تخطيطٍ مُسبق.

شعرَ بأنّ وجوده معها ضروريّ للتعرّف على تلك الأماكن من غير أن يتعرَّض لها أحدٌ بالأذى، أو يُطاردها فُضول الناس، وقد وصلا إلى مَناطق لم يزرْها من قَبل، ودخلا قرىً لم يكن قد سمع ببعضها حتَّى بالاسم، رغم تنقّله الكثير في أرجاء المَمْلكة وعمله كدليلٍ سياحيّ.

في كلّ مرَّة كانا يَختاران جهةً يذهبان إليها، وغالباً يتمُّ ذلك في يومي الجُمعة والسَّبت حيث إجازتها الأسبوعية. كانتْ تحرص على وجودِ خارطةٍ تفصيليَّةٍ تضمُّ كلَّ المُدن والقُرى لكي تتعرَّف على تفاصيلها والمسافات بينها، وإلى أيّ المُحافظات تتبع؟ وما هي المُميّزات التي تشتهر بها تلك المنطقة عن غيرها؟

غالبا ما ينتقلان معاً بسيارتها "الجِيب شيروكي" الأقدر على السَّير في المُرتفعات، والتَّعامل مع طُرق الأرياف، والتي لا تَستطيعُ سيَّارته الكُوريَّة الصَّغيرة والقديمة نوعاً ما مُجاراتها.

في بِداية أيَّة رحلة غالباً ما تعرض عليه بكلّ تهذيبٍ أنْ يقودَ سيَّارتها **"ما رأيك يا عزيزي أن نتقاسَم الطَّريق، أنت في الذَهاب و أنا في العودة؟"**، وفي أثناء انشغاله بالقيادة تقوم هي بتأمّل الأمكنة، واختيار المناسب منها، والطلب منّه التوقّف لالتقاط صورة، أو مُعاينة مكان ما، وقد يضطر أحياناً للتَّوقُّف التَّام حتَّى تنصب حامل الكاميرا الثُلاثي على الأرض، لضمان ثبات الصُّورة، وجَوْدَة اللَّقطة، والتأمّل الهادىء في التَّفاصيل.

بعد كلّ رحلة بأيام قليلة يلتقيان عادة كي تريه بعض الصُّور على "اللاب توب" بعد أن تَستبعدَ منها ما لا يصلُح.

في الحقيقة كان يشعر بالسَّعادة الغَامرة، وهو يرى جمال الصور، ودقَّة اللَّقطات، وقُدرتها على اقتناص الدَّهشة في بعض اللحظات العابرة، وتخليدها في صور، تكادُ من روعتها تنطق.

يذكر أنّه رأى من ذلك:

طفلاً حافي القدمين في "الدَّجنيَّة"[10] يركضُ خلف ديكٍ من الحَبَش.

عَجُوزاً من "كَثْرَبًا" تصنعُ كُرات الجميد[11].

رجالاً من "عِمْرَاوة" يجلسون فوق هضبةٍ مُطلّةٍ على بُحيرة مياه سدّ الوِحدة.

عائلةً من "مَيْسَرَة" يتناولون فطورهم مع خُبْزِالشراك تحت ظلالِ شجرة بلُّوط.

---

10 الدجنية، عمراوة، كثربا، ميسرة، القليعات، شطنا، الحسينية، حرثا: أسماء قرى وبلدات في مناطق مختلفة من الأردن.

11 كرات من اللبن يتم تنشيفها وتستخدم في الأكلة الأردنية الشهيرة "المنسف".

فتاة في أوَّل اليَفاعة بوجهٍ حمَّصَته الشَّمس في "القلِيعات" تبيعُ على جانب الشَّارع حبَّات البَنْدورة المَقطوفة للتوّ.

خوري كنيسةٍ في "شَطَنَا" يُدخّن وحيداً أمام مِصطبة بيتِه بعد أن هاجرَ مُعظم سكَّان قريته إلى "كَنَدا".

لاجئاً في الثَّمانينات يمشي على عُكَّاز في أزقَّة مُخيَّم "البَقْعَة"، كأنَّه يحمل على كاهِلِهِ عبء ضياع فلسطين.

راعياً من "الحُسَيْنِيّة" يحلبُ ضرع ناقته في وعاء معدنيّ.

فلاحين في مِعصرةِ زيتونٍ قُرب "حَرْثَا" لحظة تلهّفٍ لرُؤية السَّائل الذهبي الخارج من ماسورة الزَّيت.

وانتبه في صورها كذلك إلى تفاصيل لنباتاتٍ زاهيةٍ، تكاُد روائُحها تخرج من الإِطار، التقطتها في سُهول الأردنّ ووديانهِ وهضابِه ومن ذلك:

القيصوم، والشّيح، والبابونج، والزَّعتر، والميرميَّة، ورِجْل الحمَامة، والشُّومر، والعِلت، والحُمّيضِ، ولسانِ الثَّورِ، والخُبّيزة، والسّنَّاريا، والخُرْفيش، وحصا البان. كلُّها في قِمَّة يناعتها، مزروعةً في أرضها، لم يمْسَسها أحدٌ.

***

ذاتَ يومٍ أرتهُ مَجموعتها الخاصَّة من الصُّور، التي اشتغلت فيها على الضَوْءِ وتدرُّجاته.

قالت إنَّها ستقيمُ معرِضاً في إحدى الجاليريهات بعمَّان عن هذا الموضوع المُحدَّد، وكيف عالجتهُ في صُورها. دُهِشَ لمَّا رأى التنوّع في الصُّور، وقُدرتها على التقاط الفُروقات ما بين: الوميضِ، والبصيص، والبَريق، واللَّمعان، والنُّور، والضّياء، والوَهَجِ، والشُّعاع، والسُّطوع، واللَّهيب، والشَّرر، والاحتراقِ، سواءً ظهرَ ذلك في النُّجوم مع حلكة اللَّيل، أو في تكاثف الغيوم مع الرَّعد العَاصف في الشّتاء، أو ضِياء القمر في اللَّيالي الصَّافية، أو الجمر المُتوقّد في الكَوانين، أو شُروق الصُّبح قبل طلوع الشمس، أو ذُبالة القنِديل في أوَّل اشتعالها وحتى درجات نَوَسانها، عدا عن معرفتها الدقيقة بدرجات الانْبِلاج، والبُزوغ، والإشراق، والاشتعال.

دُهشَ من عينِ عدستها السَّاحرة، وهي تُظهر في تِلك الصُّور هيمنة أعداء الضَّوء على المَشهد بشكلٍ دقيقٍ وبدرجاتٍ مُتْقنة مثل: الغَبَش، والكثَافة، والضَّباب، والبُخار، والظُّلمة، والدُّخَّان، والغَشاوة، والعَتمة، والعَماء.

منذ بداية تعارفهما، شعر بها صريحةً، وواضحةً، لا مُواربة في مَشاعِرها، ولا تُخفي ما ترغب بقوله حتى لو بدا قاسياً. أخبرتهُ أنَّ ذلك جزءٌ من طريقة تربيتها، تعوَّدتْ عليه منذُ الصّغر، ومن الصَّعب أن تتخلى عنه، وأنَّ الكَذِبَ عندها من الكبائر التي لا تُغتفر، لهذا لا تقول شيئاً معيناً إلا إذا كانَتْ تقصده تماماً.

قالت له:

- اسمع يا عزيزي، العملُ شيء والعلاقة بيننا شيءٌ آخر، أنتَ في العادة تعمل دليلاً سياحياً بأجر، و أنا أريدك معي في جولات التَّصوير بين الحين والآخر، مُقابل أجرٍ ماليٍّ أيضاً، وليس بشكل مجّانيّ، ولا تنسى أنَّ لديّ تمويلاً من إحدى المُؤسسات الثقافيَّة، لمشروعي هذا.."بزنس إز بزنس"[12].

رفض الفِكرة حينها، مُعللاً أنَّ دافعه هو مَحبَّته لها، وأيضاً لأنَّها تقوم بتوثيقٍ جميلٍ لملامح من بلده، تُسهم في ترويج جماليَّاتِه وتفاصيله أمام العالم، ولأسباب كثيرة حاول جاهداً أن يشرحها لها، لكنَّها كانت رافضة تماماً

[12] Business is business تعبير إنجليزي للتركيز على العمل وحده دون عواطف

لأيّ تبرير، ووضعته بين أمرين لا ثالث لهما: إمَّا أن يقبل بالبَدَل المادّيّ عن جهوده في الأيام التي يُرافقها فيها بالجولات، أو ستتدبَّر من يقوم بهذه المُهمَّة بطريقتها الخاصَّة، وأمام إصرارها، وطريقة تفكيرها القاطعة في مثل هذه المسائل اضطرَّ للموافقة.

حدثَ أنْ زارا مناطقَ عديدة، بعضها برفقةِ أفراد عائلتها أيضاً الّذين تعرَّف عليهم، ودعُوهُ إلى بيتهم أكثرَ من مرَّة. والدها من "ليدز" شمال إنجلترا، ووالدتها من ضواحي العاصمة "لنْدَن"، ولها أخٌ يعيشُ في بيتهم هناك، لم يزرْ الأردن إلا مرَّات قليلةٍ مُتباعدة، وبالذَّات في أعياد الميلاد.

بدا والدها مُرتاحاً لعلاقتهما، فيما كانتْ أمُّها مُتحفّظة نوعاً ما، رغم أنَّ "أليس" أوضحت لهما بأنَّه صديق عزيز يُساعدها في التعرّف على تفاصيل الحياة في الأردن، ويُرافقها في جولات التَّصوير، إضافة إلى التحدّث باللغة العربية معه لتطوير مهاراتها بها، وذلك أيضاً مما اتَّفقا عليه منذ البداية، حين قالت له:

- **ما رأيك أنْ نُخصّص نِصف وقتنا، كلَّما التقينا، للتحدّث بالعربيَّة، والنِصف الثَّاني بالإنجليزية، هكذا أكون أنا قد طوَّرت لُغتي، ووجدتُ من يتحدّثُ معي، ويُصحِّح أخطائي، وفي الوقت نفسِه، تكون أنت قد تعمَّقت أكثر في الإنجليزية، كما يتحدَّثها أهلها؟**

بدتْ له الفِكرة ممتازة، ومفيدة لكليهما، لهذا وافق عليها مباشرةً بعيداً عن الجَوانب الماليَّة التي أزعجته من قبل. هكذا راحا يتحدَّثان مرَّةً بالعربيَّة، ومرَّة أخرى بالإنجليزية حتَّى ينتهي اللقاء. وفي الحقيقة فقد أدرك لاحقاً أنَّ اقتراحها كان ذهبياً، إذ أصبحتْ لُغتها العربيَّة تتطورُ يوماً بعد آخر، وزادَ اتقانه هو للّغة الانجليزيَّة أيضاً.

قال لها بعد ثلاثة أشهر من بدء تلك الاتفاقية بينهما:

- **أقولُ لك بصراحة إنَّ الفائدة عندي قد حصلت ليست في اللُّغة الإنجليزية فحسبْ، بل في العربيّة الفصيحة أيضاً حين أضطرُّ لمجاراتك، والردّ عليك بها. هذه اللغة القابعة في الكُتبِ، ومحطَّات الإذاعة والتلفزةِ، والصُّحف، و أقسام اللّغة العربيَّة في الجامعات، ولا نستعملها عادةً في تفاصيل الحياة.**

ردّت عليه آنذاك:

- **الأمرُ مُشابه لذلك عندي أيضاً، ففي العادة أتحدَّث مع الآخرين بلهجتي الخليطة بين اللنْدنيَّة ولهجة أبي الشّماليَّة، لكنّي معك أضطرُّ للتحدُّث بلغةٍ شبيهةٍ بما تبثُّه محطَّة "بي بي سي" تقريباً؛ أي لغة المثقفين، ورجال السياسة، والملكة، حتى تستطيع فهمي، وهذا ما جعلني أتنبَّه إلى لُغتي الأمّ أكثر، و أكتشف جماليَّاتها وكنوزها.**

***

بعد تلك الحالة التي داهمته في شقّته بحضور "أليس" أصبحتْ أسئلتها الكثيرة ترغبُ في معرفةِ ما جرى له بالضَّبط، ومعنى تلك الكلمات التي كان يهذي بِها، وهو شِبه غائبٍ عن الوعي، وذلك الصُّراخ الحادّ أحياناً المُختلط بالبكاء. أخبرته بأنَّها أُصيبت بالجَزَع ممَّا شاهدتْهُ وسمعته منه. لمْ تعرفْ ماذا تفعل حينها، وكادت أنْ تتَّصل برجال الإسعاف لنقله إلى المُستشفى لولا أنْ هدأ قليلاً. ظنَّتْ ذلك من أثرِ الإفراط في الشَّراب أوَّل الأمر، قبل أن يخبرها بالتَّفاصيل الدَّقيقة عمَّا جرى معه في الكهف، والرُؤى الَّتي انقضَّت عليه في "السّيق" والمُستشفى.

بدتْ واجمةً من شدَّة الصَّدمة وهي تستمعُ إليه حتَّى النهاية، وبعد صمتٍ طويلٍ طلبتْ منه أنْ يراجع طبيباً نفسيَّاً، ما دام أنَّ الأطباء الذين عالجوا جُروحه من قبل، لم يكتشفوا أيّ أثر لتلفٍ في الدّماغ، أو تأثيرٍ على الوعي، لهذا يمكن أن يسعى الطبيبُ النفسيّ المتخصّص لمعرفة نوبات الهَذَيان الَّتي تَنْتابُه، وبالتَّالي إمكانيَّة معالجته. أخبرته أيضاً بضرورة أن ينتبه لمثل هذه الحالات أثناء قيادته للسَّيَّارة، أو في أيّ مكان عامّ فتؤدي إلى ما لا يُحمد عقباه.

رفضَ اقتراحها بشدَّة. قال لها إنَّه لا يقتنع بالأطبَّاء النفسيّين وحيلهم الفارغة، لأنَّها لن تفيد في حالته كثيراً، ولا يشعرُ بأنَّه مريض نفسيّاً أساساً. أدركَ بأنَّه أخطأَ حين حدَّثها عن تفاصيل ما جرى معه، فمن الواضح أنَّ هذا الاعتراف الصريح سيعمل شرخاً بينهما بعد اليوم، لكن لم يكن هناك مناص من ذلك، وقد شهدتْ بنفسها مثل هذه الأحوال.

أخبرها أيضاً عن مُراسلاته مع "غاريث" وأنَّه لا مانع لديه من زيارة "الجمعيَّة الروحيَّة " يوماً ما إن حالفه الحظُّ وزارَ "لندن". قال جُملته الأخيرة مبتسماً وغامزاً باتّجاه أن تفكر هي نفسها بترتيب ذلك، أو تدعوه إلى بلدها ذات يوم، لكنَّها كانت حينها غارقة في قلقها، وهي تتذكر تلك الحالة الغريبة التي سيطرتْ عليه، وإلى أيّ مدىً يُمكن أن تقوده إليه في قادم الأيام، وكأنَّها كانت تغطُّ في نومٍ عميقٍ في علاقتها معه خلال تلك الأشهر المُنصرمة ثم استيقظت فجأة، وحلَّ عليها الوُجوم.

كتابٌ أبيضُ عن أيَّامٍ سَوْداء

أخذَ العَملُ الجديدُ في "مركزِ الدّراسات والتَّوثيق" جُلَّ وقته، إذ أصبحَ يُمضي فيه يومياً من التَّاسعة صباحاً حتَّى الخامِسة عَصْراً، بعدها يعود إلى شقّتهِ مُرهقاً، ينامُ لساعةٍ أو ساعتين عادة، ثم يصحو وقد بدأ اللَّيل يلقي بغشاوته على المدينة، فيجهّز العَشاء، ويمضي بعض الوقت في مُشاهدة التّلفاز، أو يضطُّر إلى قراءة بعضِ الكُتبِ الَّتي تتعلَّق بعمله، وقليلاً ما يلتقي عدداً من أصدقائه في مقاهي المدينة. كما خَصَّصَ عُطلة الأسبوع للقاء "أليس" وللرَّاحة أيضاً إن لم يكن هناك جولات للتَّصوير، وأحياناً يقوم بزيارةِ أهله في "الزَّرْقاء" ويُمضي هناك ليلةً واحدةً ثمَّ يعود، إلا إذا تورَّطَ مُجبَراً في بعض المسائل الاجتماعية للأُسرة والأقارب من أعراسٍ، ومآتم، ومُناسبات لا حيلة له على تجاهلها.

اكتشف أنَّ مركز الدّراسات يشتغلُ على مجموعةٍ من المشاريع البحثية والكتب في عدد من القضايا الفكريَّة والاجتماعيَّة من خلال تفريغ باحثين لكلّ مشروع، بعضها تمَّ تكليفهم بها من قبل جِهات حُكوميّة، وبعضُها من جهات أخرى. في البِداية قامت إدارة المركز بتخصيصِه للعمل على أرشفة موضوعات معيَّنة من خلال تتبُّعها في كتبٍ مُحدَّدة قام باحثون بوضع تظليل لها بالأقلام الفسفوريَّة الصَّفراء، ثم تفريغِ المادَّة المَقصودة موضع البحث، مع ذكر رقم الصفحة، والمؤلّف، ومن أيّ مصدر تمَّ نقلها، إن كان صاحب الكتاب قد أخذها من مصدر آخر.

شعر في البداية أنَّ هذا العمل يبدو له رتيباً ومملّاً، لكنَّ ما أغراه بالبقاء فيه وجود راتبٍ شهريّ مُمتازٍ، إضافة إلى حوافز أخرى قياساً لعمله السَّابق في التَّعليم، وأعماله المُتقطّعة في السّياحة، غير أنَّه مع توثيق علاقته مع

مدير المركز، واكتشافه إمكانيَّاته في البحث، ورغبته في التَّعمُّق أكثر بعيداً عن الأرشفة الرتيبة، عرف أنَّ هناك مشروعاً يتمّ الاشتغال عليه بصمت لإحدى الإدارات الأمنية العُليا بالدولة، هدفُه تتبَّع جذورِ العُنف في العُهود الإسلاميَّة السياسيَّة المُبكّرة، وتوثيقه من مَصادره من الكُتب المَعروفة دون تزويقٍ أو تشذيب، ودون محاولة لـ "تعقيم" التَّاريخ أو تزيينه، بل نقل ما وصل منه بكلّ حياديَّة عن هذا الموضوع رغبةً من هذه الجهة - كما يبدو- لفهم ما يجري في الواقع الحالي، وربطه بالماضي، وبالتَّالي البحث عن وسائل لمعالجة كوارث الحاضر في التطرّف الفِكريّ وخِطاب الكراهية والإقصاء حتَّى يمكن تجنُّب مثل ما جرى في الدُول المُجاورة التي غرقت في بحر الدّماء وطالها التَّدمير.

استهواه ذلك الموضوعُ كثيراً، خُصوصاً حينما تذكَّر أفكار "النّمْس" وما جرى لأخيه، وبما أنَّ المدير كان يرغب في شخص موثوق به لمُتابعة هذا البحث بشكلٍ سرّيّ دون أن يُظهر نتائجه على الناس، أو أنْ يتمّ تسريب أهدافه لأيّ جهة، فقد وقع الاختيار عليه لإنجازه، وتمَّ تزويده بعشرات المراجع للبدء بقراءتها بتأمّل عميق، واكتشاف ما فيها ضمن موضوعات محددة، وهكذا راح يغوص شيئاً فشيئاً في نفائسها وكوارثها معاً حتَّى كاد يغرق من بعض ما وجد فيها من الأهوال.

ظنَّ بادىء الأمرِ أنَّ ما يقرأه قد يكونُ قادماً من الخيال الجامح، أو من تهويمات المُؤرّخين، أو تزوير النُسَّاخ والكَتَبة، وضغوط القادة والأمراء المُنتصِرين، لكنَّ المصادر الأولى للمُجلَّدات المُحقَّقة كانت واضحةً بين يديه، وهو يُفرّغ منها تلك المعلومات الصَّادمة، وفي حال احتاج لأيّ مرجعٍ جديدٍ، أو كتابٍ ليس عنده، أو نُسخة من مخطوطٍ نادرٍ كان يُخْبر مُديره مُباشرة ليقوم بتأمينه له بطريقته الخاصَّة، حتى لو اضطرَّ الأمر إلى شرائه من خارج البلاد. وقد حُفظَ هذا المشروع باسمٍ رمزيّ هو "الكِتابُ الأبيض"؛ ربَّما ليدلَّ على عكس ما في داخله، وبالنسبة إليه لم يكن معنياً بالتَّحليل، أو الرَّبط، ولا التعليق، بل تقديم المُقتطفات الأوليَّة والاقتباسات كما وردت في الكُتب في مسائل عديدة تمَّ تحديدها له من بينها: الاغتيالات، والإعدامات، وقتل العُلماء والأُدباء،

وطُرِق التَّعذيب، وقضايا السَّبْي، والتَّهتُّك والمُجون،..وغيرها، وذلك عبر رصدها خلال فترةٍ مُحدَّدة من تلك العُهود الغابرة.

أدركَ "صالح" أنَّ تخصُّصَه في "التَّاريخ" حيث قضى أربع سنواتٍ في الجامعة من قبل لدراسة مجموعة من المواد المُقرَّرة سلفاً شيءٌ، والبحثُ العميق عن الحقيقة في بطون الكتب دون تزويق أو مجاملة شيءٌ آخر، إذ عادةً ما يكون مَقْصَد الدّراسة في الجامعة الحُصول على الدرجات الجامعية عبر النجاح في المَساقات المُقرّرة، ضمن وجهة نظر مُحدَّدة يغلب عليها عُنصر التلقين دون أي تدبُّر، بينما القراءة الحرّة لكتب تبدو خطيرة في موضوعاتها بنوعٍ من التفكّر فيها بحثاً عن أيّ مادة تفيده في موضوعه مسألة مغايرة تماماً.

حين جلس في مكتبه بمركز الدراسات مُحاطاً بمجموعة من تلك الكُتب، وجد فيها من العَجائب ما لا ينقضي، ومن الأخبار ما يحتاج إلى مُراجعاتٍ طويلةٍ. راح يتأمل بعض عناوينها، وكيف تشير بشدَّة إلى مضامينها أحياناً، أو تُراوغ قليلاً وتنزاحُ إلى الرَّمز، ومن ذلك:

"كتابُ المِحَنِ" للتَّميميّ، و"عجائب الآثار في التَّراجم والأخبار" للجبرتيّ، و "مُروج الذَهب ومعادن الجوهر" للمَسعوديَ، و"مَقاتل الطالبيّين" للأصفهانيّ، و"المُعجِب في تلخيص أخبار المَغْرب" للمرَّاكشيّ، و"بدائعُ الزُّهور في وقائع الدُّهور" لابن إيَّاس، و"المواعظُ و الاعتبار بذكر الخِطط والآثار" للمقريزيّ، و"نَفْحُ الطّيبِ من غُصن الأندلس الرَّطيب" للتلمسانيّ، و"النُّجوم الزَّاهرة في مُلوك مِصر والقاهرة" للبرديّ، و "نُزهة النُّفوس والأبدان في تواريخ الزَّمان" للصَّيرفيّ، و"كِتابُ الفِتن" للمرزويّ، و"الأحكامُ السُّلطانيَّة" للماورديّ، و"غِياث الأمم" للجُوينيّ، و"الفرجُ بعد الشّدَّة" للتَّنوخيّ.

يعرفُ "صالح" أنَّ بعض النَّاس إن قرأوا ما فيها من الأخبار والحِكايات وذِكر الأهوال مُلئوا منها رُعباً، وولُّوا فِراراً، ومن ذلك ما ورد عن: عن قتل الخُلفاء، وقادة الجُند، والفقهاء، والشُعراء، سواءً بالسَّيف، أو بالسُّمّ، أو بالحرق، أو بالتَّغريق، أو بطرق أخرى يعجز "الشيطانُ" نفسه عن تنفيذها، أو حتَّى أنْ يصل خياله للتَّخطيط لمثلها، ويتذكَّرُ بشكلٍ حادّ بعض ما وجده فيها، وقد وضع أسماء بعض من وجدهم في رموز، وأرفق حقيقتهم في جدولٍ مُنفصل، حتى لا يقع ما كتب في أيدي بعض العوامّ، فيُصابوا بالاضطراب، على أنَّه لا يعرف إن كان ما قرأه صحيحاً تماماً، أو مُزوَّراً ومدسوساً، فالتأكُّد من ذلك يحتاجُ إلى جُهودٍ عظيمةٍ لنقد الرُّواة، والمقارنة بين الروايات، وكشف صِدق الأخبار من كذبها، لكنَّ ذلك لا يقع تحت مسؤوليَّته، ولا طاقة له فيه أو عِلم، لهذا نَقلَ ما نَقلهُ من الكُتب كما ورد، فمن المُؤكَّد أن من يقرأها يتأثَّر بها، ولا بدَّ أنَّ بعض من يتورَّط فيها من الشَّباب يظنُّها صحيحةً تماماً لا يأتيها الباطل، فيتَّخذها ذريعة ومصدراً موثوقاً قد يقوم بتقليده.

***

هذا بعض ما وجدته فيها دون تدخُّل منّي ولا تبديل أو تحوير، وقد أرفقته بالتقرير:

..بدأ الأمرُ مع "مُعاوية" حينما قال "إنَّ لله جُنوداً من عَسَل" حيث اكتشف إمكانيَّة خلط العسل بالسُّموم، ليقتل بشُربه الخُصوم، فقد رتَّب له طبيبه السُّريانيُّ "ابن آثال" كلَّ الخلطات، وهيَّأ لهُ الكثيرَ من اللَّبخات، فنالت من "مالك بن الأشْتَر" أحد قادة "عليّ بن أبي طالب"، فماتَ على الفوْر، ودسَّتْ "جَعدة بنت الأشعث" السُّمَّ لزوجها "الحسنْ بن عليّ" في الطَّعام؛ إذْ وعدها "مُعاوية" بأنْ يُزوّجها لابنه "يزيد"، مع مِئة ألفِ دِرهم، لكنَّه لمْ يَبرّ بوعده أبداً، كما أرسلَ من وضع السُّمَّ في شَربة عسلٍ لـ "عبد الرَّحمن بن خالد بن الوليد" الَّذي

عَظُم شأنهُ في الفُتوحات في أرض الرُّوم، حتَّى لا يتولى الحكم من بعدهِ بدلاً من "يزيد"، وكذلك فعلَ بـ "سعد بن أبي وقاص"، وقتلَ "مُعاوية" من آل البيت، وصحابة النَّبيّ أعداداً كبيرة، منهم "حجر بن عدي الكِنديّ"، و "شريك بن شدَّاد الحضرميّ"، وقتل الأُمويُّون "عليّ بن الحُسين" وابنه "محمَّد الباقر" بالسُّمّ، واحتل "أبو عطية" من قادة مروان مكَّة والمَدينة، وقَتَل من فيها من الخوارج، واستسلم له أربعمائة مِنهم فأعدمهمْ جميعاً، وتزوَّجَ "مروان بن الحكم" أرملة "يَزيد بن مُعاوية" فتواطأتْ مع جَواريها، فأَلْقَيْنَ مخدَّة على عُنقه وقعدن عليها حتَّى اختنق. وماتَ "عُمر بن عبد العزيز" مَسْموماً من أقاربه بني مروان الذين لم يعجبهم تَقشُّفه، وخوفاً أن يسلُبَهم كثيراً ممَّا في أيديهم من المال، أو يُطيح بوضعهم السابق في السُّلطة بين النَّاس.

وأحرقّ "المُعتضد بالله"، "محمَّداً بن الحسن بن سهل" بشدّهِ على أعمدةِ الخيام، وتمَّ تاجيجُ النَّار تحته، وطلبَ من عُمَّاله أن يُقلّبوه على النَّار كأنَّه طير يُشْوى، لأنَّه سعى إلى بيعة من أولاد "الواثق"، وأمر "خالداً القسريّ" أمير العِراق، بحرق "وزير السّختيانيّ" حيث نُصبتْ له نارٌ هائلة في ساحة واسعة، وجمعَ الجُندُ أطناناً من الحطَبِ مع النَّفط، ثمَّ أُشْعلت على مرأى من النَّاس تخويفاً لهم، وظل "السّختيانيّ" يتلو القرآن وهو يَحترق حتَّى مات. وقُتل "محمَّد بن أبي بكر" بوضعِه في جيفة حِمار ثمَّ أُحرق، وقَتلَ "المأمونُ" وزيرَه "الفضل بن سهل"، إذ أمر جماعةً بالدُّخول عليه في الحمَّام وقتْله، ومع ذلك عرضَ عشرة آلاف دينار، لمن يأتي بهم حتَّى يُبعد عن نفسه التُّهم، وجيء بِهم إليه فقَطعَ رؤوسِهم، وأرْسَلها إلى "الحَسَن بن سهل" شقيق "الفضْل" حتَّى تهدأ نفسه، وأحرق "أحمد بن طولون" والي مصر في زمن الدَّولة العبَّاسيَّة كاتبه "أحمد بن حنون"، بوضعه في تابوتٍ خشبيّ، واشعال النَّار به وهو حيّ، وسلَّط "هِشام بن عبد الملك" واليه في الكوفة "خالد بن عبدالله القسريَّ" لمُعاقبة الفَقيه "الجعد بن درهم"، حيث شدَّ وثاقَه صبيحة العيد تحت المِنْبر، وقالَ بعد أن أنْهى الخطبة: "أيُّها الناس، ضحُّوا تقبَّل اللهُ ضحاياكم، فإنّي مُضحٍ بالجعد بن درهم، لأنَّه قال باجتهادٍ يُخرجه من ملَّة المُسلِمين"، ثمَّ نزلَ وذَبَحَهُ كما تُذبح الشَّاة. وقتلَ "المأمونُ" أخاه "الأمين"، وعين وليَّاً لعهده الإمام "عليّ الرِّضا"، ثم سُرعان ما دسَّ

السُّمَّ للإمام وقَتله. وحبسَ الخَليفة "المَنصور" الفقيهَ "أبو حنيفة النُّعمان" في السّجن، وكان في السبعين من عمره فماتَ من كَثرة الضَّرب، وحبسَ الخَّليفة "هارون الرَّشيد" الإمامَ "موسى الكاظم" في دار رجل هنْديّ، وتمَّ لفُّه ببساط، وقعدَ عليه الفرَّاشُون حتَّى اختنق ومات، وقتلَ "صلاح الدّين الأيُّوبي" الصوفيّ "السُّهروردىَّ" صبْراً بمنع الطعام والشراب عنه حتَّى مَات، وقتلَ ملكُ غِرناطة "نصر بن محمّد" أخاه الفقيه النصريَّ تغريقاً في بِركة ماء، لأنَّه طمع في المُلك أثناء مرضه، وقد وَضَعُه في زَكيبة بعد تكتيف يديه ورجليه وأمرَ برميهِ في الماء، وقتلَ "الحجَّاجُ بن يوسف الثَّقفيّ" الفقيهَ "سعيد بن الجبير"، كما رمى الكعبةَ بالمنجنيق وسوّاها بالأرضِ، وأعدمَ طِيلة عشرين سَنة من حُكمه نحوَ مائة ألفٍ من الرّجال والنِساء، كما سجنَ نحو عِشرين ألفاً، وأعدمِ "أبو مُسلم الخُراسانيُّ" نحو سِتمائة ألف بين رجلٍ وامرأةٍ وغلام، واستباح "مُسلم بن عُقبة المرّيُّ" "المدينَةَ المُنوَّرة" مع جنوده ثلاثة أيام، قَتلاً ونَهباً، واغتصاباً للنساء، وقَتلَ "المهديُّ والد هارون الرشيد" بيده "صالح بن عبد القدوس" شاعر الحِكمة والدَّاعي للزُّهد، بأنْ شطره الى نصفين بضربَةٍ واحدةٍ على هامته، وعلَّق جُثَّته بنصفيها في إحدى ساحات بغداد ، وأُعْدمَ الشَّاعر "بَشار بن برد" جَلْداً، وقد نيَّف على السَّبعين.

أمَّا فُصول التَّعذيب الَّتي وثّقتُ بعضها، فقد رأيت فيها ما يَشيبُ له الصّبيان مثل:

التَّشميس للرَّجلِ بعد إلباسِهِ أدرع حديدٍ، ووضع ثِقلٍ على صدره، وتركه ساعات النهار في الشَّمس الحَّارقة حتَّى يموت، وتقطيع الأوصال، ويشملُ قطع اليدين، والرّجلين، واللّسان، وصلْمِ الآذان، وجَدْع الأنف، وجبَّ المَذاكير، وسلخَ الجُلود، والقليَ بالزَّيت الحارّ، والشَّيَّ على نارٍ هادئة، والقذف بالماء المغليّ.

وقد سلخّ "المُعزُّ الفاطميُّ" جِلد الفقيه الدِمشقيَ "أبو بكر النابلسيّ"، وحشاه تِبناً وصَلَبَهُ، وكذلك فعل السُّلطان السُّلْجوقيّ "محمد بن ملكْشَاه" بـ "أحمد بن عبد الملك بن عطاش" صاحب قلعة أصفهان

الإسماعيليَّة؛ إذ سلخَ جِلده حتى مات ثمَّ حَشَاهُ تبناً. أمَّا تنُّور الزَّيَّات الذي ابتكره "محمَّد بن عبدالملك الزيَّات" وزير الواثق، فهو يُصنَع من الخشب، وتخرج مِنه مسامير حادّة، وفي وسطه خشبة مُعترضة يجلس عليها المُعذَّب، وميّزة هذا اللَّوح أنَّ الشَّخص لا يستطيع أن ينام أبداً؛ لأنَّ أيّ حركة له، قد تقوده إلى الوقوع على مسمار فينتبِه، وهُناك القَتْل بالطَّشت المُحمَّى الَّذي عُذّب به "عَبد الحميد الكَاتب" من صاحب الشُّرطة، إذ كان يُحمّي طَشتاً ويضعه على رأس الكاتب حتَّى مات، وهُناك المَوتُ بالنَّورة أي حجر الكلس المختلط بالزرنيخ، وهي من الوسائل الَّتي قُتل بها "إبراهيم الإمام" زعيم الدَّعوة العبَّاسيَّة على يدِ "مَرْوان بن محمدّ" آخر خلفاء الأُمَويّين، حيثُ وُضِع رأسُه في جراب مليء بالنَّورة، وشدَّه عليه بإحكام، وتركَهُ حتَّى مات مُختنقاً، ومن ذلك التَّبريد بعد الجَلْدِ؛ أيْ صبُّ الماء البارد على جسدِ المَجْلود في يومٍ بارد، وقد استخدمَها "عبدُ الملِك بن مروان" مع "سعيد بن المُسيَّب"، إذ رفض سعيدٌ تزويج ابنته المَشهورة بجمالها لابنه "الوليد"، هذا عدا عن وسائل أخرى، لديَّ أمثلة لا تحصى مِمَّن قام بها وضحاياها، أسأل الله اللُّطف لمن اطَّلع عليها، ومن ذلك:

تكسير العظام بالعِيدان الغليظة، وقرضُ اللَّحم بالمَقاريض الحديديَّة، ونفخُ الدُّبر بالمَنافيخ، وقلعُ الأظافر، وقلعُ الأضْراس، وكشْطُ الجُلود بعيدان القصَبِ ثمَّ رشُّ المِلح عليها.

موسِم صيْد السَّاحِرات

لاحظتْ "أليس" تبدُّلاته المُزعِجة، واضطراب أحواله بعد ما جَرى أمامها شيءٌ من ذلك، وقد تَكثَّفت التَّقلُّبات الغَريبة بعد انغماسه في العمَل بمركز الدّراسات، فقد شاركها في لحظةِ ضعفٍ بعض هواجِسه، وأفضى إليها بنزرٍ يسيرٍ عن بحوثه، وما وَجَدَهُ في كُتب التَّاريخ من الأهوال، ويذكر أنَّها قالت له حينها مُهوّنة عليه:

- **في ذلك الوقت الذي تتحدَّثُ عنه، كُنَّا في أُوروبا نعيشُ في ظلامِ الجَهلِ، والتخبُّط، وأستطيع أنْ أُحدّثك طويلاً عن تاريخنا الأكثر قَتامَة، بينما كان أجدادُك يعيشون على درجةٍ عالية من الرُّقيّ الحضَاريّ، والتقدّم العلميّ، لاسيّما في الأندلس، الَّتي كانتْ الدِراسة في جامعاتها حُلماً لكلّ مُتنوّر من بلادنا الغارقة بالحُروب الطَّائفيَّة والتَّخلُّف.**

هل سمعتَ مثلاً عن تِلك المَذابح الفَظيعة الَّتي جرتْ للبروتستانت الإنجليز في إيرلندا في العام 1642م، حيث طالَ القَتلُ الرجال والنِساء والأَطفال، سواءً بالرَّجمِ حتَّى المَوْت أو شَيّهم وهم أحياء، أو بقْرِ بُطون النّساء الحَوامل، وإجبار الأبناء على قَتل آبائهم وأمّهاتهم، والنِساء على ذبْحِ أطفالهنَّ وأزواجهنَّ، أمَّا "موسِم صيد السَّاحرات" فهو يَحتمِل من الجرائم المُريعة ما تعجزُ الألسنةُ عن ذِكره، ويكفي أن تعلم أنَّ محاكم التَّفتيش الشَّنيعة في ألمانيا كانت تقوم بحرقِ النّساء عند أدنى شبهة، على أساس أنَّهن ساحرات. آه لوْ حدَّثْتُك عن التَّعذيب القاسي الذي كان يَسبق اعتراف النّساء عند الشكّ بِهن، لأدركت أنَّ من يتعرض لذلك، مهما كانت قُوَّة احتمالهِ، فإنّه سيعترفُ زُوراً

على نفسه، لينجو من التَّعذيب، لكنَّه في الحقيقة لا ينجو أبداً، إذْ تكون عُقوبة الإعدام بالحرْقِ بانتظاره.

يكفي أن تعرف مثلاً أنَّ ضحايا هذا الاتّهام الزائف بالسّحر قد تسبَّب بمقتل ما لا يقل عن مائة ألف امرأة في ألمانيا وحدها في القرن الخامس عشر.

ولو أّطْلعتُك على بعضِ الكُتب عن الكوارث التي ارتكبها الملك الأسكوتلندي جيمس السادس، الذي تسلَّم عرش إنْجلترا فيما بعد باسم جيمس الأول، في هذا الاتّجاه لوجدتَ أنَّ البشريَّة من مختلف الدِيانات والحّضارات، وعبر الأزمِنة مارستْ بحقّ أبنائها الجرائم الَّتي لا توصف، هذا عدا عن فظائع "محاكم التَّفتيش" في إسبانيا بعد خروج أجدادكم من هناك.

شَعرَ "صالح" أنَّ حالته الغاضِبة والمُحبطة قد انتقلت إلى "أليس" الَّتي أصبحت تُحدّثه وهي تكادُ تتماهى مع وضعه تماماً بدلاً من أن تمتصَّ كآبته، وتمنحه دفقةً إيجابية، غير أنَّها سُرعان ما هدأت وقالت:

- **هل تعرف ما الفرق بيننا وبينكم بعد كلَّ ما ذكرته لك؟ أنْتم بقيتم أسرى لهذا الماضي ولم تستطيعوا تجاوزه، ولم تأخذوا أفضل ما فيه كي تبنوا عليه مُستقبلكم، بينما نحن تجاوزنا ذلك، ومضينا ننتصرُ لثقافة الحياة والتخطيط للمُستقبل. لاحظ أنَّ المَذابِح التي تجري في بلادكم اليوم هي نتيجة طبيعية لسوءِ قراءة الماضي. الفارق إذن كبيربين من ينتصرُ للحاضرويؤسّس للمُستقبل ويَحْتفي بالحياة، وبين من يبقى حبيس كوارث التَّاريخ، ويُفكر بتكريس ثقافة الاحتفاء بالموت، وشطب الحاضر، وبالتالي تأكّد بأنّ من لا حاضرله لا مستقبل ينتظره.**

رغم تلك المُحاضرة الَّتي أسْمَعته إيَّاها لأوَّل مرَّة، فقدْ بَدَتْ له لا تزال مُصرَّة على ضرورة أن يستشيرَ طبيباً نفسيَّاً، أو أن يجدَ عملاً آخر، يأخذهُ إلى بهجة الحياة وجماليَّاتها، لا أن يعود به إلى الماضي وعُفونته ليبقى حبيسه، وقد مرَّ أسبوعان لمْ يَرها فيهما، فقد سافرتْ إلى بريطانيا لمقابلةٍ بخصوص عملٍ جديد، لم تصرّح الكثير عن تفاصيله، ووجدَ في ذلك الغياب فُرصةً له ليطمئنَّ على أحوال أهله، ويزورهم في نهاية الأسبوع، ليلتقي أخيه الضَّابط الذي تمَّ نقله أخيراً إلى "الزَرْقاء" نفسها، رُبَّما كي يبقى قريباً من العائلة، حتَّى لا تتكرَّر تلك المصائب الَّتي حدثت مع أخيهما الأصغر، ورُبَّما كنوعٍ من العِقابِ المُبطَّن له، وتحمُّله وزر قريبه "النّمس"، إذ تمَّ تحويله للعمل في "إدارة السَّيْر"، بعد أنْ كانَ في قسم أمْنيّ آخر أكثر أهميَّة، لهذا أحسَّ في لقاءاته المتباعِدة معه بأنَّه أصبح مُتذمّراً وساخطاً على العائلة ومشاكلها الَّتي تسبَّبت له بشكل غير مباشر في تدمير مُستقبله المِهَنيّ ورَكْنه في الظّل.

يذكرُ أنَّه كانَ مُتضايقاً جدَّاً ممَّا آل إليه "النّمس" في سُوريا، وما سبَّبهُ من إشكاليات في صفوف العَشيرة هنا بتصريحاته العدوانيَّة ضدّ وطنه، وربَّما بَدَا الأكثر سعادة من بينهم جَميعاً حينما وصله خبر مَقتله في صراع بين جماعته وبين تنظيم آخر من المرُتزقة القَّادمين من شتَّى أنحاء العالم بَحثاً عن الجِهاد المزعوم، لهذا ظهرَ "محمود" حازماً في ضرورة عدم إقامة بيتٍ للعزاء بهذه المُناسبة، إذ إنَّ العشيرة قد أعلنت براءتها منه على الملأ من قبل وهو حيٌّ، وأنَّه بالتالي لم يُعد يُمثّلها في شيء، ولا ينتمي إليها من قريب أو بعيد، وفي الحقيقة فقد تنفّست العشيرة الصُعداء بمقتله، إذ تمَّ إغلاق ملفّه المُثير للقلق إلى الأبد.

***

في جولاتهما الأسبوعية، كانت "أليس" تسأله أحياناً عن مدينته "الزَرْقاء" ومتى يُمكن أن تزور بيتهم هناك، وتتعرّف على أمّه وبقية أفراد الأسرة، غير أنَّه ظلَّ يتعلَّل لها بحججٍ واهية، ويُؤجّل الأمر قدر المُستطاع، وربَّما هذا ما أثار في داخله التساؤل:

إلى متى تبقى هذه العلاقة بينهما بالصّيغة الحاليّة؟ ولم لا يفكران بالزواج مثلاً؟

يدرك أنَّ رفيقته الأثيرة لم تكن تنظر للأمر بالطريقة نفسها الَّتي يُفكّر بها هو فقد بدتْ واضحة له منذ البِداية، ودون مواربة حين أحسَّت بأنَّ العلاقة بينهما أصبحت تتعمَّق بسرعة، وأنَّها قد تقود إلى التفكير الجدّي بالزواج. أخبرته أنَّه سبق لها المرور بهذه التجربة لمدَّة سنة تقريباً من زميل لها أيام الدِراسة الجامعيَّة، بعد أن جمعتهما قصَّة حُبّ عاصفة، انتهت بالفشل والانفصال.

قالت له مرَّة بشكلٍ صريحٍ ومُباشر:

- **اكتشفتُ أنَّ الحبَّ شيءٌ، والتَّورُّط اليوميّ في المُؤسسة الزوجيَّة شيءٌ آخر، وأنَّ المَثل الذي يقول "الحبُّ أعمى" صحيحٌ تماماً. فحين تُحبُّ المَرأة ترى في رجُلها مَلاكاً قادِمَاً من السَّماء، وتتضخَّم أمام عينيها كلّ جَماليّاته، وتتصاغرُ عندها عيوبَه، وهذا الأمْرُ يَحدث للرجل بالمقابل غالباً كما أتخيَّل، لكن عند الاحتكاك اليومي المُباشر تزول هذه الهَالات، وتتَّضح الرُؤية، فتبدأ العلاقة حينها بالتآكل والانتقال إلى المرحلة الثانية، وهي فنّ الاحتمال، أي القدرة على تحمّل الزوجين بعضهما بعضاً. هناك من ينجح ويستمر في حياته، وهناك من يفشل مِثلي، ويختار حريَّته الفردية.**

من المؤكد أنَّها قالت له كلَّ ذلك كنوعٍ من الطَّرح المُسبق لما تُفكّر به حتى لا يطلب منها ذات يوم أن يرتبطا معاً تحت سقف هذه المُؤسسة، بخاصَّة أنَّها لم تشفِ بعد من آثار تجربة زواجها الأوَّل كما شعر، ومع ذلك ترك الأمر للزمن حتَّى تتعمَّق العلاقة بينهما، فربَّما تُساهم في تغيير رأيها من الداخل، لأنَّ مثل هذه المسائل الحاسمة

لا تحتاج إلى ضُغوطات وإلحاح، بل إلى رغبةٍ حقيقيّةٍ مُشتركة من الطرفين بالارتباط، حتَّى لو كان الحبُّ هو المُهيمن على العلاقة.

بقيت عدّة أيام على عودة "أليس" إلى عمَّان حين وصلته دعوة عن طريق "غاريث" لحضور "مِهرجان لندن للأفلام الوثائقيَّة" حيث أخبره أنَّه سيتمُّ عرض فيلم "ماغي البدوية" كما أُطلق عليه، والذي أنجزاه معاً.

شعر بالسعادة لهذه الدَّعوة كونه سيلتقي رفاق العمل في الفيلم مُجدداً، كما أنَّها فُرصة لزيارة "الجمعيّة الروحيّة" الَّتي حدَّثه عنها من قبل، إن كان الأمر ما يزال ممكناً، وحين أخبر "أليس" بشأن الدَّعوة أحسَّ بفرحها المُضاعف لأنَّه سيزور لأوّل مرَّة موطنها. أخبرته أنَّها ستؤجل عودتها إلى "عمَّان" لأيام أخرى حتَّى تلتقيه في "لندن"، وتحتفي به، وتحضر جانباً من المهرجان، لكنَّها لن تستطيع البقاء طويلاً هناك لالتزاماتها الكثيرة.

في الطائرة راح يُفكّر بتوصيفها الذي باحت به من قبل عن الحضارة العربية التي تكتفي بالتغنّي بالماضي والبقاء هناك، وعن الحضارة الغربية التي تقدّم للبشرية اليوم جميع ما يمكن أن يسهم في تطوير الحياة على الأرض من علاج الأمراض، والاختراعات العلميَّة، وتنظيم العمران، وسُهولة النقل، وحتَّى الزِراعة، والأطعمة، فيما يغطّ العرب في نوم عميق.

قال في نفسه:

"قد يكون بعض كلامها صحيحاً، رغم أنها لم تُشر إلى الجانب المُظلم من الحضارة الغربية اليوم ومدى مساهمتها في دعم بعض الجهات المُتطرِّفة، والأنظمة الدِيكتاتوريّة، وتزويدها بالسلاح، عدا عن الإرث الاستعماري الطويل والمرير الذي ما تزال آثاره ماثلة في شعوب العالم إلى اليوم، فالتَّأخُّر الحاصل في البلدان الَّتي يُطلقون عليها "العالم الثالث" في هذا العصر تتحمَّل مسؤوليته الدُّول الاستعماريّة الغربيّة بشكل أو بآخر إضافة إلى تدخلاتهم العسكرية الجديدة، وحروبهم الطاحنة هنا وهناك الَّتي لم تهدأ بعد".

رغم تلك التداعيات التي انثالت في رأسه رغبَ في أعماقه أن يَرى الجانب المليء من الكأس. لمْ يتخلَّ عن شوقه لرؤية تلك البلاد الجميلة، وما فيها من المتاحف العريقة، والجامعات والمصانع، والمكتبات، وكلّ مظاهر الحضارة الحديثة، وأن يرى رفيقته في بيئتها الأثيرة، ولم لا يفكر أيضاً بأن يعيش معها ذات يوم قريب، فيرى المستقبل بكلّ جماليَّاته بدل البقاء هناك أسيراً لماضٍ أَخطبوطيّ يُلقي بظلاله على حاضر مُهشَّم وسط أمَّة أدمنت الحروب والنكبات.

راح ينغمس في أحلام اليقظة الملّونة الَّتي تفتحُ الآمال لعيشٍ أكثر جَمالاً، وانفتاحاً على خيارات أخرى، قد تُغيّر مَسيرة حياته مرَّة واحدة، وإلى الأبد.

"أليس" في بِلادها

حين وصل مطار "هيثرو"، وجدَ "أليس" بانتظاره. بَدَتْ مُبتهجةً بزيارته الأُولى إلى مدينتها المَحبوبة "لندن". أخذت تشرح له وهما في الطَّريق إلى الفُندق عن بعض المعالِم الشَّهيرة الَّتي قرأ عنها من قَبْل، ربَّما سعياً منها لتخفيف الأجواء الأولى المُحيّرة الَّتي تهبط على المَرْءِ عند مُعانقتهِ مدينة جديدة، والتَّلطيف من إرهاق السَّفر، وطقس هذه المدينة المُتقلّب بين قَتامة الغيوم التي تمرُّ أحياناً والشَّمس السَّاطعة.

رغم رِحلاته القليلة خارج البِلاد، فإنَّ من عادته قبل السَّفر الدُخول إلى موقع "غوغل إيرث" عبر الإنترنت، لإنجاز جولة "افتراضيَّة" في المَدينة الَّتي يَنْوي زيارتها، حيث يُشاهد مكان الفندق الذي سَيقيم فيه، وموقعه من الأسواق، وأسماء الأمكنة المُحيطة به، والمَعالم السياحيَّة الَّتي تَقعُ قُربه، وكيفيَّة الوُصول إليها.

مثل هذه الجولات الالكترونيَّة غالباً ما تكون مُفيدةً له، وتُوفّر عليه مشقَّة سؤال أهل البلاد قدر الإمكان، وعدم الظُّهور للآخرين بمظهر الغريب عن المكان، أو الباحث عن شيء ما حتَّى لا يتعرض لتربّص بعض الطامعين عادة بمن هم مثله. كما يتعرَّف عادة على قيمة العُملة أيضاً، والأسعار في المَطاعم، والفَنادق، وكيفيّة القيام بجولات داخل المدينة بالتاكسي أو الحافلات، أو عبر محطّات المترو، وإن كان ينوي الذهاب إلى مدن أخرى يستعلم عن مواعيد رحلات القِطارات، وأيَّة معلومات قد تفيده في رحلتة، لكنَّه هذه المرَّة في مدينةٍ يُتقنُ لغة أهلها جيداً، إضافة إلى وجود رفيقته الأثيرة معه، إذ يدرك أنَّ ما يجمعهما معاً أكبر من الصَّداقة، وأعلى من الحبّ، وأرقّ من العاطفة، وأكثرُ من الانجذاب، وأقوى من الصُحْبة، على الأقل من وجهة نظره هو، أو هكذا يحسُّ بها، وربَّما أيضاً هو الوهم الجميل ولا شيء غيره، فقد حيَّرته هذه العلاقة وتوصيفها، وهذه المرأة وتقلّباتها ما بين الاقبال الحميم والصمْت المُقيم.

ربَّما لأجْل كلّ ذلك القُرْب شعرَ بها مُشوَّشةً على غير عادتها، تُحاول أن تُخفي عنه أمراً ما يعتمل في أعماقها، لكنَّه لمْ يشأ أنْ يسألها عن ذلك، ما دامت تحرص ألَّا تظهره، ولم يأت الوقت المناسب بعدُ للبَوح به. عَزَا ذلك إلى زيارتها هذه من أجل مُقابلة العَمل الخاصَّة بها، وما تمَّ بها من الرفضِ أو القُبول، أو ربَّما لأمور أخرى لا علم له بها، لهذا أخفى عنها إحساسه بتوتُّرها على غير العادة، حتى تخبره عن ذلك بنفسها إن رغبت، فقد تعوّد معها ألَّا يكون فضولياً، ولا يسأل إلَّا بِقَدَر.

في الطريق إلى الفندق رنَّ هاتف "أليس". قالت له "هُناك من يُريد أن يطمئنَّ عليك"، ونَاولته الهاتف. جاء صوت "غاريث" مُرحّباً ومُعتذراً عن عدم تمكنُّه من لقائه في المطار. قال له: أنت محظوظ بوجود "فتاتك" في لندن هذه الأيَّام للاحتفاء بك. شكرهُ وتواعدا على اللّقاء في صباح اليوم التَّالي، ليُعلمه عن برنامج الزّيارة، وتفاصيل المهرجان.

لاحظت أنَّ رفيقها قد طالهُ شيء من الكَدَرِ وغيوم النَكَد الَّتي تحومُ حولها، لهذا قالت له في مُحاولة لإزالة الأجواء المُلبَّدة، وكُتل الجَليد الَّتي تراكمت بينهما:

- لن نتناوبَ هنا على اللُّغة العربيَّة والإنجليزيَّة كما كُنا نفعل في الأردن، ولا تقلق يا عزيزي سأجعل البَرنامج مُكثَّفاً لأجلك حتَّى أُعوضك عن غيابي، إضافة إلى أنَّي سأُرافقك إلى افتتاح "مِهرجان الأفلام الوَثائقيَّة" الذي يبدأُ مساءَ الغدّ.

أخبرها أنَّ زيارته ستكون لأسبوعٍ واحدٍ فقط، إذ لم يستطع الحصول على إجازة أطول من العمل. وأنَّه حاول كثيراً مع مديره، غير أنَّه أُصرَّ على عودته من أجل الانتهاء من بَحثه الذي طال حول الكتاب الذي حدَّثها عنه من قبل.

ما إن وصلا الفندق حتَّى وضع حقائبه في الغُرفة، وخرجا مَعاً في جولةٍ على الأقدام ضِمن المنطقة المُحيطة بالفندق حتَّى يعتاد على المكان، ويتفاعل قليلاً مع الطَّقْس الَّذي بدأ يميل إلى الاعتدال، رغم أنَّه غير قابل للاحتمال عادة، فقد تمرُّ الفُصول الأربعة كاملة خلال اليومِ اللنْدنيّ الواحد.

بعدها اقترحت عليه "أليس" أن يستقلا مترو الأنفاق من المحطَّة القريبة، باتجاه حديقة "هايد بارك"، ثمَّ القِيام بعد ذلك بجولة على أبرز معالم المدينة، إذ إنَّه وصل مبكراً، وعليه أن يستغل أيامه القليلة هنا بكامل ساعاتها دون أن تضيع داخل الفندق.

أخبرها أنَّ "الضَّيف أسير المُعزّب" كما يقول مثلهم، وهي حُرَّة في ترتيباتها له، وما عليه إلَّا المُوافقة، وهكذا قضيا سحابة ذلك النَّهار في أماكن كثيرة دُهِش لرؤيتها على الحقيقة بعد أن كان يعرفها نظريَّاً فقط، وبدا كرمُ رفيقته واضحاً حين دعته في ذلك المساء إلى تناول طَعام العَشاء في أحد المَطاعم اللندنيَّة العَريقة.

نامَ بعمقٍ في تلك اللَّيلة بشكلٍ لم يشهد مثله منذ سنوات طويلة، ولم يستيقظ إلَّا على هاتف الغُرفة في صباح اليوم التالي وهو يرنُّ بشكلٍ متواصلٍ كاشطاً بقايا الأحلام المُشوَّشة من رأسه، إذْ وصلَ "غاريث" الفندق، وراح ينتظره في "اللُّوبي" لتأخره في النَّوم، لهذا جهَّز نفسه على عَجل، وهبطَ للقائِه.

قال له صديقه اللندنيّ، وهو يُعانقه بفرح، غامزاً من تأخّره في النَّوم:

- **عهدتك نشيطاً من قبل تتسلَّق الجِبال، وتَسبقنا إلى مو اقع التَّصوير، ما بال "لندن" قد جعلتك خاملاً هذا الصباح؟**

- **نمْتُ كَميّت..يبدو أنَّ في مدينتكم هذه سحراً يأخذ المرءَ إلى النَّوم العَميق!**

- **أفضل شيء في هذه الحالة أن نشرب قهوتنا على ضفَّة "التايمز" لنصحو معاً. أنا مرهقٌ أيضاً من التَّحضيرات الخَّاصة بالمهرجان.**

خرجا من الفندق وأخذا يتمشيان على ضفَّة النَّهر الشَّهير الذي يتعرَّج داخل المدينة، فيُضيف إليها المزيد من الجَمال، ويُحيلها إلى كائن حيّ ينبض بالحياة. اختارا مقهىً مطلاًّ على النَّهر، وشربا النِسكافيه بالحَليب مع قِطعة من الكرواسون الطَّازج المَحشو بالمربَّى.

لم يطل اللقاء لأنَّ "غاريث" لديه ترتيبات ضروريَّة لحضور الافتتاح مع فريق الفيلم، وارتباطات أخرى، لهذا أعطى "صالح" كُتيّب المِهرجان الذي يضمّ تفاصيل البرنامج ليطّلع عليه، واتَّفقا على أن يلتقيا في حفل الافتتاح. أخبره "غاريث" أنّ عرض فيلم "ماغي البدويَّة" سيكونُ في الثَّامنة من ليلة الغد، كما طمأنه على عجل أنَّه سيتفرغ له أكثر في الأيام المُقبلة حال انتهاء عرض الفيلم، وأنَّه رتَّب له زيارة إلى "الجمعية الروحية" خلال الأيام المقبلة. فجأة قبل أن يغادرا عائدين إلى الفندق، قال له على سبيل المزاح الثقيل:

- **بالمناسبة ما هي أخبار الكهف السرّي المليء بالجرار..هل حاولت الوصول إليه مجدداً؟**

ردّ عليه على سبيل الفكاهة أيضاً:

- **ألمْ تعدني بأن نذهب إليه معاً؟ أنا بانتظارك.**

قهقه حينها ومنحهُ ردَّاً بدا له قاطعاً:

- **لا تُعوّل عليَّ كثيراً يا صديقي. صحيحٌ أنَّني مُعجب بسلسلة أفلام "هاري بوتر".. لكنّي لا أصلح لمثل هذه المُغامرات أبداً.**

لا يدري حِينها لمَ داهمهُ شُعورٌ بأنَّ عليه أنْ يُثبت للجميع أنَّ ما جرى معه في تِلك اللَّيلة رغم مُرور أكثر من سنة عليه كانَ حقيقيَّاً تَماماً. شعرَ أنَّ سُؤال صديقه المُغلَّف بالسُخْرية يَشي في باطِنِهِ بعدم تصديقه للحكاية كلّها، رغم قربه مِنه، فالرَّجل ربَّما يظنُّ أنَّه يهذي أو يتخيَّل كلَّ ما جرى من شدّة الصَّدمة في تلك اللَّيلة.

لكلّ ذلك عزمَ في أعماقه أنْ يُعيد فَتح ملف ذلك الكَهْفِ مُجدَّداً حين عودته إلى الأردن قريباً، وأن يسعى بكلّ ما أوتي من قوَّة إلى الوصول إليه بنفسه مهما كلَّف الأَمر.

حَيَواتٌ ضَّارِيَةٌ تَترَبَّص بالطُّمأنينة

طِيلة وجودها في لَنْدن حَرَصتْ "أليس" على أن تمضي أطول وقت مُمكن مع صديقها البدويّ، كما كانت تُطلق عليه أحياناً، وقد عرَّفته خلال الأيَّام القليلة التي قضياها معاً على الكثير من الأمكنة المُنتقاة الَّتي يقصدها السيُّاح في المدينة عادة مثل: مَتحف الشَّمع، والمَتحف البريطانيّ، وطُقوس تبديل الحَرس أمام القصر الملكيّ، و"عينْ لنْدن" ذلك الدُّولاب الضَّخم الذي يمكن رؤية المدينة الشَاسعة من علّوه الشَّاهق، فتظهر عاصمة الإمبراطوريَّة البريطانيَّة التَّليدة بكامل بهائها، كما صَحبتْه إلى حفل افتتاح مهرجان الأفلام الوثائقيَّة الَّذي تَميَّز بأجواءٍ بهيجة، والتقى برفاق الأمس الَّذين أنجزوا فِيلماً عن "البَتْراء" وآخرَ عن "ماغي".

اختتما جولة اليَّوم الأخير لهما في شارع العرب الشَّهير "إدجوار رود" حين دعته إلى العَشاء في مطعمٍ لبنانيّ يمتازُ بأكلهِ الشَّهيّ، وأجوائه الَّتي تُذكرها بعمَّان. حين ودَّعته تلك الليلة عند باب الفُندق شعرَ بأنَّها لا تزالُ بتلك الحالة المُشوَّشَة الَّتي تُحاول تغطيتها بإضفاء جوّ من الفرح المُصطنع على الحوارات بينهما.

تأسّفتْ كثيراً لأنَّها لن تكون موجودة خلال الأيَّام المُتبقية له هنا، كي ترافقه في زيارته إلى "الجمعية الروحيَّة" وتمنَّتْ له أن يكون اللقاء مفيداً ويحلّ مشكلته إلى الأبد. قالت إنَّها مُتشوّقة لمعرفة رأي الخُبراء هناك بالأحوال المفاجئة الَّتي تَعتريه رغم أنَّها تعتقد أنَّ الأمرَ مثلما أخبرته من قبل بسبب الضُغوطات النفسيَّة، وطبيعة عمله أكثر من أيّ شيء آخر.

***

قبل عودته إلى عمَّان بيومين ذهب مع صديقه المُخْرج لزيارة "الجمعيَّة الروحيَّة" حسب الموعد المُرتَّب مُسبقاً، وهناك التقيا "ستيف"وهو باحثٌ في المَاورائيَّات، وأحد المسؤولين عن إدارة الجمعيَّة. رحّب بهما في مكتبه، وبعد أن عرف سبب زيارتهما راح يُحدثهما عن الجمعيَّة ونشاطاتها.

قال لهما إنَّها تأسَّست في العام 1871م على أيدي مجموعةٍ من المُهتمّين بالبُحوث الروحيَّة؛ حيث بدأت أعمالها في تلك الفترة المُبكّرة بجلسات التَّنويم المِغناطيسيّ، والتعرُّف على ذوي الإدراك الفائِق للحواس، وتنظيم جلسات للاستشفاء، وهي اليوم تضمُّ خِيرة الباحثين والوُسطاء الرُّوحانيّين من المُتحمّسين لهذه العُلوم المِيتافيزيقيَّة والدَّاعمين لها، ويقوم عمل الجمعيَّة على البُحوث، ولقاءات تدريبيَّة ومُحاضرات، وجلسات تأمّل، وورشات عملٍ لتطوير القُدرات على الجَلَاء البَصريّ، والسَّمْعيّ، إضافة إلى تقديم العِلاج الرُوحيّ، والجلسات الفرديّة مع الخُبراء لاكتشاف الطَّاقات الرُوحيَّة للأفراد، ومساعدتهم في حياتهم اليوميَّة، خُصوصاً من يَتَعرَّض منهم للتوتّر الشَّديد، والكآبة، والصَّدمات بسبب رحيل بعضِ المُقرَّبين.

أخبرهما أيضاً وهما يشربان شاي الأعشاب عن المبادئ الَّتي يُؤمن بها أعضاء الجمعيَّة، وتُشكّل قاعدةً للاتفاق بينهم ومنها: إيمانهم بوجود طاقة عاقلة مُطلقة تحكمُ الكونَ كلّه، وأنَّ الهُويَّة الشَخصيَّة للإنسان وخبراته الحياتيَّة على الأرض تستمرُ بعد رحيل جسده الماديَّ أي موته، وهم يؤمنون أيضاً بأنَّ هناك تواصلاً بين الإنسان والوجود من حوله لا ينتهي برحيله، بل يستمرُ فيما بعد، كما يعتقدون بإمكانيَّة التَّواصل مع العوالم ذات الطبيعة الروحيَّة، وأنَّ كلَّ البَشريَّة مُرتبطة مع بعضها روحيَّاً، أمَّا المُحاسبة للفرد فتكون ذاتيَّة في الحياة المُقبلة على الأفعال الَّتي ارتكبها في الحياة هنا، وأيضاً فإنَّ كلَّ إنسان يتحمَّل المَسؤولية الكامِلة عن أعماله الَّتي يقوم بها.

قال "ستيف" إنَّه من النَّادر عبر تاريخ هذه الجَمعيَّة أن يزورهم أُردنيُّون أو حتَّى عرب، وإنَّه سعيدٌ بهذه الزّيارة، لكنَّه أبدى أسفه لتَراجع العَرَبِ عن الاهتمام بالبُحوث الرُّوحيَّة، رغم أنَّ المشرق نبع غنيَّ بهذه التَّجارب. ربَّما

السَّبب يرجع حسب ما أخبره "صالح" إلى غَرَقِهم بالأوضاع السّياسيَّة المُتقلّبة طِيلة القرن العشرين، وربطهم الدّين بالسياسة على حساب التطوّر الرُّوحي.

أكَّدَ مضيفَهُما هذا الرأي مُنتبهاً إلى أنَّه لدى الصُّوفية في الشَّرق تجارب عَميقة في هذه الحُقول، لكنَّ الغَرَقَ في التَّديُّن الظَّاهري، ومُمارسة الطُّقوس الخارجيَّة لن تقود إلى تَنْمية الذَّات للفرد بشكلٍ عميقٍ لاكتشاف ما في داخله من الكُنوز الرُوحيَّة، وأبدى في الوقت نفسهِ انتقاده للمُجتمع الغربيّ الَّذي يعيش فيه، والَّذي أصبحَ غارقاً في الحياة الماديَّة والتطوُّر التكنولوجيّ، وأبْعَدَ النَّاس عن تطوير قُدراتهم الفِطْريَّة، وأسهمَ في تشتيت أرواحهم الصافية.

بعد ذلك قامَ بتقديم زميلته "دورثي" لهما، فهي خبيرة التَّنويم المِغْناطيسيّ في الجمعيَّة، ووسيطةٌ روحيَّةٌ عالية الدَّرجة. بدتْ لهما في نِهاية الخمسيناتِ من عُمرها، وأقرب إلى البَدانة غير أنَّها مُفعمة بالحيويَّة، ولها وجهٌ طفوليٌّ المَلامح، يفيضُ بالبَشاشة والطّيبة.

حدَّثها "صالح" عن التقلُّبات الَّتي جرتْ لهُ منذ سقوطهِ عن الجبل إلى يومهم هذا. ظلَّت مُنصتةً طيلة الجلسة حتى أنهى كلامه. قالت بعدها:

- **الكيانُ الروحيُّ للإنسان مَوجود قبل تكوّنه الجَسديّ، وسيبقى بعده، هذا ما نؤمن به هنا، واختبرناه عبر شهادات المُعلّمين الرُّوحانيّين الكَثيرة، والتَّجارب التَّأمليَة العَميقة، وقراءة اعترافات السَابقين لنا، لكنَّا رغم ذلك لا نجد فائدةً في أن يعرف الانسان ماضيه، لأنَّ ذلك قد يُربك حاضره. هناكَ حِكْمة من إخفاء هذه المعلومات عن البشر أساساً، لكن من المُفيد أن يعرف الإنسان بعض الأحداث الَّتي ساهمتْ في تَشكيل وعيهِ الرُّوحيّ سابقاً، أو أثَّرت عليه سَلباً حتَّى يستطيع تجنُّبها.**

جاءني رجلٌ مرَّةً يشكو من ألمٍ في خاصرته، وقد مرّ على مُستشفيات كثيرة دون أن يستطيع الأطباء معرفة السَّبب، إذ لم تكشف الفُحوصات المِخْبريَّة، ولا حتَّى صُور الأشعَّة وجود أيّ خلل جَسَديّ عنده. كانَ الألمُ يأتيه فجأةً في حالات اضطرابِه النَّفسيّ أو خوفه، ثم يزول لاحقاً، وقد اكتشفنا عبر جلسات التَّنويم المِغناطيسيّ العَميق أنَّ الرجلَ كانَ قد تلقَّى طعنة سكّين في خاصرته أثناء مُشاجرةٍ له في إحدى حَيَوَاتِه السَّابقة، واستطعنا مُساعدته على الاستشفاء من ذلك بشطْبِ تلك التَّجربة الماضية من ذاكرته، والتَّركيز على شفائه منها.

يُمكن اعتبار ذلك نوعاً من "البَرْمجةِ العصبيَّة" بأثرٍ رجعيّ لحياتِه السَّابقة، ومرَّةً جاءتني امرأة لديها إشكالية مع الماء، فهي تكره السّباحة، ولا تطيق استخدام البانيو للاستحمام، حتى إنَّها تترك باب حمَّامها مفتوحاً من الخوف، وبعد جلساتٍ طويلةٍ تأمليَّة واستعاديَّة عبر التنويم اكتشفنا أنَّ لديها خبرات سيّئة في حيواتٍ سابقة مع الماء؛ حيث إنَّها غرقت في أحد الأنهار. المُهم في الأمر أنَّ العِلاج الروحيّ ينفعُ في مثل هذه الحالات، وهذا ما جرى مع تلك المرأة الَّتي تخلَّصت من مثل هذه التجربة المريرة.

يعترفُ "صالح" أنَّه لم يستوعب الكثير ممَّا قاله "ستيف" و"دورثي" عن إمكانيَّة أن نكون قد عِشنا من قبل في أجساد أخرى، مرَّة قرأ كتاباً عن "التَّقمُّص" الذي تُؤمن به الطَّائفة الدُّرزيَّة في سُوريا ولبنان وحتَّى دروز منطقة "الأزرقْ" في الأردن، وخلاصة أفكارهم عن ذلك، أنَّ الجسد عبارة عن "قميص" تلبسه النَّفسُ البَشريَّة، أو اللَّطيفة الرُوحيَّة، حيث تتجسَّدُ من خلاله أثناء رِحلتها الأرضيَّة، وتتركهُ أو "تخلَعُه" حين المَوْت، وأنَّه لا يمنع أن تعيش النَّفس الواحدة في كلّ حياة بقميصٍ جَسديّ جديد ومختلف عمَّا سبقه، وقد تتذكَّرُ بعض النُفوس حياتها السَّابقة تمَاماً في حالاتٍ مُعيَّنة، مِثل الصَّدمات الشَّديدة للرأسِ، أو عبر التَّأمَّل العَميق، وأيضاً التَّنويم

المِغناطيسيّ، وقد لا تتذكر ذلك أبداً وهذا هو الأغلب، إضافة إلى الإنْكار أصلاً بوجود مِثل هذه الحَيَوات من قبل.

حدَّدتْ لهما "دُورثي" مَوعداً في اليوم التالي كي تقوم بعمل جلسةِ التَّنويم، إذ أخبرها بِقُرب موعد عودته إلى عمَّان. طلبت مِنه أن يأتي لوحده، فالجِلسة خاصَّة، ولا يُسمح بدخول شخصٍ ثالث، وقد أخبرته ذلك أمام "غاريث" الذي تفهّم الأمر إذ سيكونُ مشغولاً أساساً في ذلك الوقت، وطلبَ منه أن يُسجّل عُنوان الجمعيَّة، ويستقلّ "تاكسي" من الفُندق إلى هذا المكان قبل نصف ساعةٍ من الموعِد المُحدَّد.

حين عادا إلى الفندق مجدداً اتفقا على اللقاء مساء اليوم التَّالي، بعد انتهاء جلسة التَّنويم ليطمئنَّ عليه، ويعرف ما جرى معه، وربَّما يرغبُ بمتابعة بعض الأفلام في المِهرجان بعد ذلك، أو التجوُّل في المدينة، واكتشاف أمكنة أخرى فيها، ثمّ وداعها من إحدى حاناتها الصاخِبة.

***

سألته "دورثي" حين تمدَّد على الأريكة في الموعد المُحَدَّد:

- **هل جرَّبتَ التَّنويم المِغناطيسيّ من قبل؟**
- **هذه هي المرَّة الأولى لي، أتمنَّى أن تُوضّحي لي مُسبقاً ما الذي سيجري.**

ابتسمت وقالت:

- **عليك أن لا تقلق أولاً، هي مُحاولة لجعل جسدِكَ يرتاح كما في حالةِ النَّوم العَمِيق، لهذا قد ترى ما يُشبِه المَنَامات، وربَّما الكَوابيس، إنَّها محاولة لجعلكَ تُخرج ما في عقلك الباطِن من التَّشويش**

والضجيج كي ترى ما بداخله بشكلٍ أوضح، و أنا هُنا قُربك سأتابعك أوَّلاً بأوَّل، و أتواصل معك بالأسئلة، وأُسجّل مُلاحظاتي. قد تستطيع لاحقاً أنْ تتذكَّر تلك الرُؤى التي ستنبثق من أعماقك، وفي بعض الأحيان ستبدو لك صفحةً بيضاء لا أَثَرَ فيها لشيء.

المهم أن تسترخي بهدوء، التَّنويمُ فرصةٌ ذهبيةٌ للرَّاحة العميقة..تخيَّل نَفْسَكَ سيَّارة تريد أن تطفىء محركها، وتهدأ تماماً بعد رحلة طويلة.

كانت تنظر في عينيه، وهي تتكلَّم بصوتٍ هادىء، شعرَ بها تَنْقله شيئاً فشيئاً إلى أحوالٍ لم يَعهدها من قَبل، وعهودٍ غابرةٍ، ووجوه بشرٍ، وأمكنةٍ لا تُحصى، وحروبٍ طاحنةٍ، وروائح عَبقة وأخرى عَطِنة، وأزمنةٍ مُتداخلةٍ، مرَّتْ عليه جميعاً بكلّ دقائقها حتى خالَ نفسهُ يصرخ عالياً، فيما صوتُ السَّيِّدة يأتيهِ بهدوءٍ ليوقظه بكلّ سَلَاسَة.

قابَ قوسيْنِ أوْ أدْنَى

كأنَّ الزَّمن قد عادَ إلى عُهوده الأولى.

وحيداً رأى نفسه يمشي على أرض جرْداءَ مليئةٍ بالأخاديد. من حولها تلال. في أعلاها فُوَّهات تَنفثُ الِحمَم. ترابٌ، وحِجارةٌ، ومَعادنُ ذائبةٌ مقذوفةٌ إلى مسافاتٍ بعيدة، تملأُ الأحافيرَ، وتطمسُ الوِهاد، وتحرِق في طريقها الشَّجرَ، وتقتلُ الدَّوابَ، وتُغْرِقُ البُيوت بالرَّماد الُملتهب، فيفرُّ البشرُ فزِعين إلى كهوفٍ مُجوَّبةٍ في أعالي الجِبال، لعلَّهم يتَّقون الحرائِق الُمتلاطمة، أو شرَّ الوُحوش الهاربة من هذا الجحيم.

غامتْ الصَّورُ في عينيه من فِعْل الهبابِ الُمتطاير، والهواء الُمشتعل بالأبخرةِ الخانقة. لمحَ بعدها بزمنٍ لا يُدرك مقدارهُ السَّماء مُكفهرَّة، وقد بدأتْ تهطل بشدَّة شآبيب من المَطر الأسودِ لم يرِ مثيلاً له من قبل، فيما تُبقْبقُ الينابيع متدفقةً من باطنِ الأرض، فتتراكمُ المِياه متجمّعةً في الأقنيةِ والُمنْحَدرات ثمَّ تندفعُ سُيولها بعنف شاقّةً الوِديان، وجارفةً كلَّ ما في طريقها نحو اليباب.

طوفان لا قِبَلَ لأحدٍ به، وليسَ ثمَّة إلّا سفينةٌ خشبيّةٌ يَتيمة، تَتَهادى فوق صهوة المَّوجِ العاتية تُطلُّ منها رؤوسُ من تحملُ فوقها من البشر والدَّواب والطُّيور.

رأى نفسه حينها يلهثُ من الرَّكض الُمتواصل، وهو يهرب مُتعرّجاً نَحو قمَّة جبلٍ أمامه، لعلَّه يعصمه من الماء، وثمَّة شيخٌ جليلٌ في تلك السفينة يناديه بأعلى صوته:

- **يا بني اركب معنا ولا تكنْ من الُمغرقين.**

من أين طلع عليه ذلك المركَب الضَّخم؟

لكأنَّه غارق في كابوس، وما يراه مجرَّد سرابٍ مُخاتل ووهمٍ خادع. وضع باطن كفَّيه على أذنيه حتَّى لا يسمع صوتَ المُنادي الذي يخترقُ كيانه مُصراً على الابتعاد ومواصلة صعود الجَبل بعنادٍ لا يقبل التَّراجع.

لطمتْهُ موجةٌ هادرةٌ لم يعرفْ كيف تسلَّقت كلَّ هذا العُلوّ الشَّاهق، ولم يرَ بعدها شيئاً غير الماء، وهو يحيط به من كلّ جانب، فغبشتْ الصور أمامه مُجدَّداً، ثم تلاشت تماماً وغاب عن نفسِه.

حين وَعَىَ نفسَه من جديد أدركَ أنَّه في زمنٍ آخر، ومكان مختلف، ومع بشر جددٍ، وكأنَّ آلاف السَّنوات قد انقضتْ. رأى أنَّهُ يجلسُ مع مجموعةٍ من التَّلامِذة أمام مُعلّم يتلو عليهم من كتابٍ مَنسوخٍ في يده، أو يضعه جانباً أغلبَ الوقت، لينطلق لسانه بالبيان الفَصيح، وهو يرفعُ عَمامته البيضاء قليلاً إلى أعلى جبتهه كي يمسح العرقَ الذي راح ينزُّ منها.

هناك حيث يجلس الجميع تحت ظلّ شجرةٍ وارفةٍ فوق تلَّة مرتفعةٍ، قُبيل غروب الشَّمس بقليل. لا يدري بالضَّبط هل تلك المدينةُ الَّتي تترامى تحتهم غير بعيدة هي "مُرسيَّة" أم "دمشق"؟

وليس يدرك بعد منْ ذاك الشَّيخ المُعمَّم، الذي يأتيه صوتهُ جليَّاً ومفعماً باليقين:

- **اعلم أيّها المُريد الحبيب أنَّ الزَّمنَ وهمٌ، فليس هناك أمسٌ يُمكن القبض عليه، ولا حاضر يُمكن حِفظُه، أمَّا الغدُ فموجود معدومٌ حتَّى يأتي أو انُه ويصبحُ حاضراً، وليس لنا إلاّ هذه اللَّحظة، كانت قبل "الآن" بقليل من أمر المُستقبلِ، ثمَّ جاءت و انقضتْ في التَّوّ والحال فأصبحت من الماضي**

المُتباعد، لا يمكن إمساكها، ولا حفظها أو تجميدها، إذْ تفرُّ منَّا، ولا يٌمكن تأبيدها، فسبحانَ من بيدهِ الزَّمان يُنقصه، ويزيدُ فيه، ويجعله إن شاءَ هباءً مَنثوراً.

شعر بأنّه قضى وقتاً طويلاً، وهو يتلقَّى مثل هذه الدُّروس، كأنَّها تأتيه مُشظَّاة في أزمنةٍ تُعرْضُ أمامه بسرعة، لكنَّه يستوعبُ ما فيها بكلّ جَلاء، وسمع الشيخَ يقول في أحدِ هذه المَجالس أيضاً:

- **تعالوا أُخبركم يا أبنائي كيف يكون التَّجلّي بالعلامات، فَهمَها من فهم، وغابَ عنها من غاب، مع تقييد الكَرامات حين تهبط على أعيانِ المُمْكِنات، وتذوُّق قطراتٍ من إكسيرِ العارفين في الحضرة الخياليَّة، فتعلو بالعلوم الرُّوحانيَّة، وتَسمو أمام الملأ الأعلى في حضرةِ الحَضْرات، وتَغتبِطُ بذلك حواسُّ الجوهر الهبائيّ الزائل، فينتقل من منازل الأُنسِ إلى التَّمكين، بعد أنْ يمرَّ بالتَّلوين، من حضرة العفو إلى القُربة، إلى المُشاهدة، وتجري عليه الأحوال، ويصير مُختصَر العالَم، والخليفة المقصود بالسُّجود، ومرآة الكوْن، ومَجْلَى الحقّ، ففي مقام الكَشْف، ومواطنِ التَّجلّي، ميادين الأسرار، وفهم للرَّقائق، واللَّطائف، والزُّمُرُّدة الخضراء، والجوهرة البيضاء، بعد مقاربةِ أنوار التَوحيد، والتَخلّي، ثمَّ التجلّي، ثمَّ التحلّي، والمُرور على درجاتِ المُكاشفةِ، والمُسامرة، واللَّوامع، والطَّوالع، واللَّوائح، والبوادهِ، وصولاً إلى مقامِ قابِ قوسيْنِ أو أدنى.**

أخبروني الآن هل أدركتم مِقاصدي، وفهمتم مرادي؟

رفع بعض التَّلاميذ من حوله أيديهم لطلب الإذن من المُعلّم كي يُعيد عليهم الدَّرس، ويشرحه لهم بعباراتٍ واضحةٍ، لا تحتمل التأويل والغموض، فقال جملة أسكتَتْهمْ جميعاً:

- **منْ لمْ تُرشِدْهُ إشاراتُنا لمْ تُسعفْه عباراتنا.**

بعدها غاب الشَّيخ ومن حوله من المَشهد، وعاد البياضُ ليتسيَّد ناظريه تماماً، وشيئاً فشيئاً بدأ يرى الأمكنة تُعرض أمامه، وهي تمرّ من أزمنة شتّى، فشاهد صُوراً مُشظَّاة تنبضُ بالحياة، فيها الرَّوائح تعبقُ، والألوانُ تسطعُ، والتَّفاصيل الدَّقيقة تتكشَّفُ، وممَّا انطبع في ذهنه من تلك الشَذَرات البصريَّة:

القِبابُ الزَّرقاءُ المُزجَّجةُ اللَّامعة المُحاطة بأطواق الفضَّة.

المَحاريبُ الَّتي تتسرَّبُ منها رائحةُ البَّخُّور، ودعوات المظلومين، وتسبيحاتُ الأتقياء.

التَّوابيتُ المَسروقة من الأهراماتِ والمُدنِ الدَّارسة، المليئةِ بمومياءات من عهودٍ غابرة.

العَتَباتُ المُقدَّسة المَحروسةُ بالأبواب الذَّهبيَّة، والأقفال الَّتي تنوءُ بالمَفاتيح.

الخاناتُ الَّتي تنغلقُ على أسرارِ الزُّوار الغامضين، والجوَّالة التَّائهين، والشُّطَّار، والعيَّارين.

السَّرايا المُقسَّمة بين الحريم، والجَواري، والحُرَّاسِ، والعبيدِ، ورجالِ الحاشية، والأُمراء.

الرَّدْهات الَّتي تقودُ إلى الممرَّات، والقناطر الَّتي تُفضي إلى السُّرادقات في قصور السَلاطين.

الصَّناديقُ الَّتي تفيضُ بالذَّهبِ والمُجوهرات والمعادن النَّفيسة المحفوظةُ في الدَّهاليز، والمحروسَةُ بالقَسَمِ السُليمانيّ.

السَّراديب السَّرّيَّة للسُّجون الَّتي تفوحُ منها رائحةُ الرُّطوبةَ والعَفَنِ، وينوحُ فيها المَظاليمُ، وتتلطَّخ جُدرانها بالدماء.

فُسْطاط قائدِ الجُنْدِ المُجهَّز بالطَّنافس الوَثيرة، والمَضروبَ على تلَّة تُطلُّ على ساحة المَعركة، وقد أُحيط بمئاتِ الفُرسان المُدجَّجين بالزَّرَد، والسُّيوف، والرِماح.

المَقاصيرُ الواسعة، ذات السُّقوف العَالية المُعشَّقة بخشبِ شجرِ الأرْزِ المَجْلوب من جبال لبنان، والمنقوشة جُدرانها بخطّ الرُّقعة، والنَّسْخ، والثُّلث، والطُّغرى، والكُوفيّ، والفارسيّ، والأندلسيّ، والِديوانيّ، والمَغربيّ.

المكتبةُ المُزدحمة بالمخطوطاتِ الورقيَّة والجلديَّة، للدفاتر، والسجِلاَّت، والمُجلدَات، فيها من كلّ العُلوم، والآداب، والفَلسفاتِ، والرّياضات، ممَّا لم يطلع عليه أحَد.

ثم مرّ أمامه من عرف من البشر في حيواته الكثيرة:

عقلاء المجانين المُحتَجزون في المارستانات، وهم ينطقون بالحِكمة.

غانياتٌ مُتمدّدات على أسرَّة دكاكينِ النّخاسة، ينتظرن الذكورَ الَّذين تتوثَّبُ فيهم الشَّهوات.

فقهاءٌ، ومَنَاطقةٌ، ومُتكلّمون، وفلاسفةٌ، ومُتصوّفَةٌ، ومجاذيب، وزنادقةٌ، وهراطقةٌ، وأتقياء، كلٌ قدْ علمَ منْزلته ومقولاته وعلومه ومكاشفاته.

مُحتسبون يُطاردون التُجَّار في أسواق الأندلسِ لأنَّهم يَغشُّون في المَوازين، ويَخلِطون الحليب بالماء، ويبيعونَ الفاكهة الذَّاوية، ويخلطونَ البُزورَ الرديَّة بالطيّبة، والعُطور الهِندية بالبلديَّة، ويرشُّون الِكتَّان بالماء حتَّى يَثْقُلَ عند الوزن، ويبيعون اللَّحم البائت بالطريّ، والهزيل بالسَّمين.

رُعاة يسقون إبلهم من واحة ظليلة وسط صحراء شاسعة.

قصاصو أثرٍ يتتبَّعون أثر غزاةٍ مرُّوا على مَضاربهم في اللَّيل.

قائفون يقرؤون العلامات ويتفرَّسون في وجوه أطفالٍ لِمَنْحِهم النَّسَب.

شحَّاذون هائِمون على وُجوههم في الطُّرقات، بُطونهم ضامرة، وقُلوبهم حائرة، يَبحثونُ عن كِسْرةِ خبزٍ، أو شربة ماء، أو حتَّى قطرة حنان.

سُكارى تَعْتَعَهُم الثَّملُ، فترنَّحوا ذات اليمين وذات الشمال، والعَسَسُ يُطاردونهم في الحواري والزَّنَقات.

وسمعَ أيضاً صرخات مَظلومين، ونُواح مكلومين، وبكاء مُعذَّبين، قد برزت وجوههم أمامه ضامرةً من عصورٍ بعيدةٍ، أو قريبة، فانتفضَ فجأةً، واستيقظَ يأكله الفَزَعُ، فغادرتهُ المَشاهِدُ في التَّوّ والحال، ورأى نفسِه في هذا الزَّمان، وأدركّ حين هدأَ قليلاً أنَّه مُمدَّد على سريرٍ في غُرفة واسعة، و"دورثي" السيّدة المُفْعمة بالطّيبة تجلسُ على مقربة منه، وتنظر عميقاً في عينيه، مُحاولةً بصوتها الهادئ أن تُخفّف عنه أثر تلك الرؤى المُهشَّمة، وهي تُردّد دون انقطاع:

- **دونت وري..ريلاكس..ريـ....... لـ........ ا كـ ....س..."[13]**

---

[13] Don’t worry....relax.... لا تقلق.. استرخ

كلُّ ما تَبحث عَنه تَجِدُه في داخِلك

لا يزال يذكر جيداً التَّفاصيل الَّتي شهدها في تلك الجلسة اللّنْدنيَّة حينما سحبته"دورثي" بهدوء من نومه العميق حتَّى استيقظ تماماً:

- **أريد منك أن تكتبَ ما شاهدتَ من صُورٍوأحداثٍ على هذه الوَرقة، أو يُمكنك تسجيلها صوتيَّاً إنْ رغبت مثلما جاءت دونَ مُراجعةٍ أو تدقيق** - وأشارتْ إلى جهاز تسجيل صغير على الطاولة أمامه – سأتركك الآن، **وسأعود إليك لاحقاً لنتحدّث. تذكر أن تُسجّل أيَّ شيءٍ يَبْرز إلى ذِهنك فوراً دون تفكير به مهما بَدا صادماً.**

وجدَ في نَفسه الرَّغبة حينها بصبّ كلّ شيءٍ دفعةً واحدةً على الورق. كان مُمْتلئاً بشهوة تفريغِ تِلك الرُؤى المُتلاحقة الَّتي وجدَ نفسه في خِضمّها في ذلك النَّوم العَميق، قبل أن تتسرَّب من ذاكرته.

كتبَ عبارات طويلة دون انقطاع، وأُخرى مُجتزأة وقصيرة، وكلمات مُنفصلة لا رابط بينها.

ذكرَ أسماء روائح عديدة تضوَّعت في أنْفهِ، وألوانٍ كثيرةٍ زهتْ في عينيه.

أفرغ بقلمهِ خُطَباً طويلةً سمعها، ودروسَاً حَضَرها، و بعض جُملٍ من مَخطوطات قرأها، دون أن يدري أين حدث ذلك، ولا في أيّ عصر، ولا حتَّى الأشخاص الذين قالوها أو كتبوها، فقد شَعَر بالأَزمنة تتماهى مع بعضها، وتَظْهَرُ الأمكنةُ شظايا مهشَّمةً من هنا وهناك. لا يكاد يَتبيَّنها حتَّى تختفي. هذا عدا عن البشر الَّذين مرَّت صُورهم أمامُه من شُعوب الأرض:

السُّود، والصُّفر، والبِيض، والحُمر، والخِلاسيُّون، والمُهجَّنون، والمُولَّدون، وغيرهم من ذوي ديانات ومللٍ ونِحَلٍ ومذاهب لا تحصى.

نساءٌ ورجالٌ، شِيبٌ وشبَّان، مُحاربون، ومُزارعون، وتُجَّار، وصاغَةٌ، وأطبَّاء، وتلاميذ، ورُعاة، وحرفيُّون.

أخبرته بعد أن عادت إليه، وقرأت كلَّ شيءٍ بتأمّلٍ طويلٍ أنَّ مثل هذه الحالات تدلُّ على قُدرته على تخزين ما يمرُّ في حياته من أحداثٍ بشكلٍ دقيق، والاحتفاظ بها طويلاً في أعماقه دون أيّ تفريغ. خِبرات حياتيَّة أو قراءات أو نِقاشات أو حتَّى تهيُّؤات. في العادة يبدأ الأمرُ صغيراً وهامشيَّاً في داخله، ثم سُرعان ما يُصبح مثل كُرة الثَّلج تتضخَّم مع كلّ دحرجة جديدة حتى لا يَستطيع صدَّها، فتجْتاحُه بلا هَوادة.

قالت له:

- **مِسْتِرْ "صالح". في داخِلك فيضانٌ من الأحداث الَّتي مررْتَ بها في حياتك هذه يُحاول أنْ يُغرقك. لا أستبعد أنَّ حيواتك السَّابقة كانت أيضاً مُزدحمة بذكرياتٍ صعبةٍ، وصدماتٍ قاسية، لكنَّها لم تظهر بشكل بارز في هذه الجلسة. بالطبع تحتاجُ إلى جلسات مُكثَّفةٍ أُخرى حتَّى نكتشف ذلك، لكنَّ ظُروفك كما أخبرتني لا تسمحُ لك بالبقاء طويلاً هنا. لهذا يمكن أن اقول لك بشكل أوَّلي إنَّ مُشكلتك كما تبدو لي جَسَديَّة ونفسيَّة معاً وقادمة من زمانك هذا، وليست روحيَّة من أزمان بَعيدة.**

مِن المُؤكَّد أنَّ تلك الضَّربة الَّتي حدثتْ لك بسبب السُّقوط عن الجبل كانت الشَّرارة الأولى لما جرى معك لاحقاً.

أستطيعُ تشبيه وضعك بكأس ماء مُمتلىءٍ عن آخره لا يستطيع استيعاب أيّ نقطةٍ أخرى، لأنَّه سيفيضُ إلى الخارج. أرى أنَّك بحاجة إلى أنْ تجد طريقةً لتفريغ ما في داخلك. اصرخْ. أُكتبْ. أُرقُصْ.

عانِق الطَّبيعة. مارِسْ حياتك بشغفٍ. الريَّاضة مثلاً، أو تعلُّم المُوسيقى. عِشْ اللَّحظة نفَسها بكلّ قوَّتها، ولا تجعل المَاضي يُطاردك في عُقر دارك، ولا تَقلقْ لمستقبلٍ لم يأتِ بعد.

شعر بالإحباط من كَلماتها، رغم أنَّ ملامحها تَشي بالطّيبة، وجَسَدَها الأموميُّ يفيضُ بالحنان، غير أنَّ قوَّة نظراتها كانَتْ مُؤثّرة، خُصوصاً حينما كانت تُركّز على عينيه وهي تُكلّمه، طالبةً منه أن يسترخي.

للمرَّة الثالثة يجدُ من يُشكّك بروايته عن الكَهْفِ وجِراره بشكلٍ مُوارب، ويُحيل أمر أحوالهِ الغريبة إلى الضُغوطات النفسيَّة الَّتي تُواجهه أحياناً، وقراءاته المُكثَّفة عن التَّاريخ الأشدّ شراسة، أو رُبَّما من أثر الضَّربة التي تلقاها رأسُه. مع ذلك بدتْ له تجربة "التنويم المِغناطيسيّ" مُريحة جدَّاً، وساهمت في التَّخفيف من أحماله الَّتي ينوءُ بها ولو قليلاً، وفكَّرَ في أن يأخذ نصائح هذه السيّدة على مَحْمل الجدّ ذات يومٍ قريب.

يذكر جملتها الأخيرة قبل أن يُغادر المكان حَرفاً حرفاً وهي تشدُّ على يديه مُودّعةً:

- **كلُّ ما تبحث عنه ستجده في داخلك..فلا تبتعد كثيراً .**

قلبٌ من صوّان لا نبضَ فيه

حينَ عادَ إلى عمَّان أدركَ أنَّ "أليس" لمْ تعدْ بمثلِ عفويَّتها السَّابقة الَّتي اعتادَ عليها، فقد شعر بالشَّرخ بينهما يتَّسع دون سببٍ ظَّاهري واضحٍ من جِهته على الأقل، وأصبحتْ اللّقاءات بينهما مُتباعدة، وصارتْ تحرصُ على ألّا يقودَ سيّارتها في الجَوْلات القليلة التي ذهبا فيها معاً.

حين صارَحها بالأمر أخبرته أنَّها أصبحت تَخشى بعد تلك الحالة الَّتي هَاجمته أمامها أنْ تتكرَّر من جديد بِشكلٍ مفاجىء، ويتَسبَّب بالتالي في حدوث كارثة، إضافة إلى أنَّه لم يتّبع نصيحتها في ضرورة مراجعة طبيبٍ نفسيّ، ولا استفاد أيضاً من تَشْخيص "دورثي" العَميق لحالته. يذكر أنَّها قالت له حينها بعربيَّة واضحة ذات لُكْنة انجليزيَّة:

- **عزيزي صالح.. بِصراحة أنت عنيد جدَّاً...وهذا شيءٌ غير جيّد.**

ذات يوم طلبت منه أن يكون اللقاء بينهما هذه المرَّة في "مقهى الرشيد" مُجدَّداً. لم يدرك لأوَّل وهلة سَبَب هذا الاختيار، لكنَّه فهم ذلك لاحقاً حينما راحتْ تُحدّثه عن تلقّيها عرض عملٍ في وزارة الخارجيَّة في بلادها، وأنَّ طبيعة وظيفتها الجديدة تَقتضي منها العودة للعيشِ في "لنْدن" خلال الفَترة المُقبلة، وقد يتمُّ نقلها لاحقاً للعمل في إحدى السَّفارات المُنتشرة في العالم.

أخبرته أنَّ هذا العرض قد سبَّب لها الكثير من القَلق، وربَّما لاحظَ ذلك بنفسه، فهي تُدرك أنَّ إيقاع حياتها سيتغيَّر تماماً في حالِ قبوله. قالت إنَّها كانتْ مُتردّدة بادىء الأَمر، لكنَّ أمَّها بالذات ضغطتْ عليها بشدَّة كي لا

تضيع مثل هذه الفُرصة الذَّهبيَّة الَّتي تُؤمّن لها مستقبلاً باهراً في الحقل السياسي والدبلوماسي. مع ذلك ظهرتْ له حزينة لأنّها ستترك "الأردن" الذي تحبّ، وأهلها، وصديقها "البدوي" الجميل كما وصفته، ورغم محاولة إضفاء شيءٍ من المَرَحِ على عبارتها الأخيرة شعر بأنَّ هذه المرأة قد غَدَتْ غريبة عنه، وكأنَّه لم يعرفها في يوم من الأيام. بدتْ له جافَّة المَشاعر، وتُفكّر في مصلحتها الخاصَّة فقط بعيداً عن أيّ شيءٍ آخر.

انتبه أيضاً إلى أنَّها جاءت تُودّعه في هذا المكان بالذَّات الَّذي شهدَ لقاءهما الأوَّل. كأنَّها اختارتْ بنفسها بدء العلاقة وإنهائها، فيما هو يَعومُ في عَواطف حالمة، وأوهامٍ بناها في داخله على أساسٍ واهن، فانهارت عند أوَّل اختبار حقيقي.

حينما أحسّت بآثار الصَّدمة بادية على قسمات وجهه، حاولت تلطيف الأجواء مُجدَّداً. قالت له إنَّها ستظلُّ تُفكر به، وتَتواصل معه من هناك، إذ إنَّ له مكانةً خاصَّةً في أعماقها، وقد يلتقيان في "لندن" من جديد حسب ظروفها الجديدة وطبيعة عملها، أو تأتي هي لزيارته كلَّما سَنَحتْ الفرصة، غير أنَّ محاولتها إبقاء الباب مفتوحاً، ولو بقدر ضئيلٍ للعلاقة بينهما، والكلمات التَّلطيفيَّة عن رحيلها بدتْ له ثقيلةً، ومُصطنعةً، وتدخل في باب المُجاملة الَّتي لا طائل من ورائها، فقد اتَّخذت قرارها كما يبدو وانتهى الأمر.

في ذلك المساء حينما غادرا المقهى في اتّجاهين مُتعاكسيْن أحسَّ "صالح" أنَّ قلبه أصبح مليئاً بالخَوَاء ولا شيء غيره، وأنَّ سُحب الخيبة الَّتي بدأت تَتكاثفُ في ذلك المكان أصبحت تنتشرُ في أجواء "عمَّان" كلّها لتجعل منها مدينة كئيبةً وغريبةً لم يرها بمثلِ هذه الحالة من قبل أبداً.

أدرك أخيراً أنَّ مِثل هذا الفَقد الَّذي أطاح به مثل طعنةٍ نَجْلاء في الظَّهر كان كامِناً في تلك العلاقة الشَّائكة بينهما منذ أول رشفة قهوة، مروراً بتلك اللَّحظات الَّتي قضياها معاً. عَجِبَ لأنَّه لم ينتبه إلى ذلك إلَّا بعد فوات الأوان،

فقد ظلَّ يُمنّي نفسه بأن يذهبا أبعد من لقاءات يغلب عليها الطابع العَمليُّ أحياناً، أو حتَّى الصَّداقة الَّتي تقتربُ من الحُبّ، وتُحلّق عالياً في مُتعَ الجَسَد كلَّما شعرا بسطوةِ الكِيمياء عليهما.

كان يبحث في "أليس" عن امرأةٍ يستقرُّ معها من عُزوبيَّته الَّتي طالتْ، ويجدُ في روحها موئِلاً لروحه المُشتَّتة، ويأملُ أن يقضي معها بقيَّة حياته، ربَّما في بلادٍ أخرى تحتفي بالحياةِ، وتنتصرُ للمستقبل. غير أنَّها وهي تبتعد وتقترب مثل فراشةٍ تحومُ حول ضوء شمعة استطاعت أخيراً أن تذهب بعيداً، وتنجو بنفسها، تاركةً إيَّاه وحيداً في صحراء لا نِهاية لها، ربَّما خشية أن تحترق بذلك الضوء، أو الضَّياع المؤكَّد في رمال مُمتدة لا جهات تحدُّها، ولا معالم تُرشد إليها.

***

لم يكدْ ينتهي من مشروعه البحثيّ "الكِتاب الأبيض" وتسليمه إلى مديره، حتَّى تقدَّم للحصول على إجازة لمدَّة أسبوعين، قبل أن يعود إلى عمله الاعتيادي، أو ربَّما تكليفه بالاشتغال على موضوع جديد.

لم يسأل "صالح" عن المصير الذي سيؤول إليه ذلك المشروع الذي اقتات على روحه، وأربكَ طمأنينته، بعد أن قضى فيه أشهراً طويلة من القِراءات والبَحث والتَّوثيق، فذاك أمرٌ لا يُهمُّه، فهو يخصُّ الإدارة الَّتي تعاقد معها بشروط كثيرة، من بينها عدم وضع اسمه على البحوث والكُتب المُنجزة من قبل المَركز، وألّا يقوم بإفشاء أسرار العمل مثل تفاصيل الموضوعات الَّتي يشتغلون عليها، أو تسريب شيءٍ منها.

مع ذلك شعر وهو يسلّم المشروع بأنَّه قد تخلَّص من حِملٍ ثقيل، أو من مرضٍ مُعدٍ يصيب من يطلع عليه بالهلْوَسةِ والقلق. لكنَّه تمنَّى في قرارة نفسه أن يأتي باحثٌ آخر بعده يكون أكثرَ جُرأة واطّلاعاً ليربط ذلك الماضي الذي اشتغل عليه بكلّ ما فيه بما يجري في أيامنا هذه. فقط مُحاولة منه لرصدِ ذلك التسرُّب الخفيّ والمُخاتل أحياناً، أو حتى الصريح والمباشر من ذلك الزمن الغابر حتَّى وصل إلى مُجتمعنا اليَوم فتجلَّى في تصرفات بعض الجماعات الإقصائيَّة الَّتي تتَّخذُ من الدّين لَبُوساً، وساهَمَ في صِياغة أفكارهم عن الحياة والموتِ، وكلّ التَّفاصيل الصَّغيرة، وحتَّى الأحداث الكبيرة.

لم يُمانع المُدير في إجازته الطويلة نسبياً، لكنَّه بَدَا مُستغرباً لأنَّها سوفَ تستهلك كامِل رصيده من الإجازات دون أن يستخدمها لأمرٍ هامّ مثل الزواج أو السفر. شكره أوَّلاً على جُهده الكَبير في إنجاز البحث، وأخبرهُ بأنَّه سيُخيّره بعد عودته من الإجازة بين العملِ على موضوع جديد يتعلَّق بالتَّاريخ المُعاصر، أو الاستمرار في تلك السِلسلة من "الكِتاب الأبيض" التي تتناول قضايا أخرى، ومراحل زمنية غير تلك التي تمَّ تناولها في البحث الأول.

تذكَّر نصيحة "أليس" في ضَرورة أن يجد له عملاً آخر، وهي الَّتي حرصت على التذكير بها مُجدَّداً في اللقاء الأخير بينهما، لكن أين يمكنه أنْ يجد عملاً جديداً، وقد تنقّل من قبل بين التعليم والدليل السياحي والباحث. إذ لا يكاد يستقر في مكانٍ أساساً. مع ذلك فإنَّ نصائح تلك الشَّابَّة الإنجليزية ذات المَشاعر الموضوعة في ثلَّاجة لم تعدْ تعني له شيئاً، فما يَزال انسحابها الأُفعوانيُّ المَرير يعصفُ بكلّ كيانه، ويوماً بعد آخر يدرك أنَّه جَرى تضليل مَشاعره كيْ تُمطر فوق قلبٍ من صُوَّان لا نَبْضَ فيه.

بعد رحيلها الصامت تبدَّت أيامه، وكثيراً ما كانت تهبُّ عليه لحظات مُكثَّفة من الزَّمن يَستذكر فيها ما مرَّ بينهما من لقاءات بكامل دقائقِها، يلومُ نَفسه أغلب الوقت لأنَّه لم يستوعب إشاراتها، ولا استطاع فَهم رُوحها الهائمة، ولا حتَّى قُدرته على تَحمُّل طريقة تفكيرها المُغايرة له، ونظرتها الخاصَّة للعلاقة بين الرَّجل والمرأة، دون تربُّص

أحدهما بالآخر من أجل جرّ هذه العلاقة نحو العيش تحت سقفٍ واحد، ودون أن تكون الظُّروف ناضجةً في داخلهما أولاً.

مع ذلك ظلتْ "أليس" تتواصلُ معه بين الحين والآخر عبر الاتّصالات الهاتفيَّة، ومن خلال الرَّسائل الالكترونية، وتسألُ عن أحواله، وتُطمئنهُ على عملها الجديد الذي بدت سعيدةً به.

علاقته مع "غاريث" تواصلت أيضاً لكنْ في حدّها الأدنى، ولم ينس في أعماقه ذلك التَّشكيك الَّذي واجهه فيه مُباشرة عن وجود الكَهف، واتّفاقه في هذا الرأي مع "دورثي" و"أليس" دون ترتيبٍ مسبق بينهما. رُبَّما لأنَّه لم يخبر عن ذلك أحداً آخر غيرهم من أهلهِ وأصدقائه أو حتَّى من الأدلَّاء السياحيّين الذين يعرفهم، لهذا عَزمَ على أن يقوم خلال إجازته بالسَّفر إلى "البَتراء"، والبحثِ عن ذلك الكهف بنفسهِ وبأيَّة وسيلة مُمكنة مهما كلَّفه الأمر، حتَّى يُثبت للجميع أنَّ ما جرى معه كانَ حقيقيَّاً، وليس من صُنع خياله، وأنّه لا يُعاني من أيَّة اضطرابات نفسيَّة، أو هَلْوسات.

وَحيداً إلاّ مِن نَجْمةٍ بَعيدة

قبل ذهابه إلى "البتراء" حرص على زيارة أُسرته في "الزَّرْقاء" دون أن يَبوح لهم بشيءٍ عن خطَّته، ولا حتَّى عن حصوله على إجازة من العمل. لاحظتْ أُمُّه أنَّه قد نَحُفَ كثيراً خلال الأشهر المَاضية، وظهرَ بنظراتٍ شاردةٍ، ولحيةٍ غير حليقة. بدت قلقةً عليه، لكنَّه حاول طمْأنتها أنَّ ذلك بسبب الإجهاد في العَمل، وقلَّة الاهتمام بطعامه. لم يَظهر على ملامحها أنَّها قد اقتنعتْ، وسُرعان ما راحتْ تُمطره بالسُّؤال الَّذي أصبح لازمةٍ لها مُنذ سنوات، وهو متى سيتزوَّج كي تفرح بهِ وتَرى "عياله" قبل أن يداهمها الموت.

لا يدري "صالح" لمَ زلْزَلَ سُؤالها هذه المرَّة كَيانه، كأنَّها تعطيه الإنذار الأخير في هذا الموضوع مُستشعرةً قرب رحيلها، أو ربَّما تُدرك أنَّه أدمنَ العُزوبيَّة، وانشغلَ بنفسهِ ناسياً هذا الجانب المُؤجَّل فيه لأسباب يتحمَّل مسؤوليتها تماماً، لكنَّها تظلُّ غير مفهومةٍ لأسرتهِ ولأقربائهِ، فالتَّفسير الوحيد للشَّخص الَّذي لا يتزوَّج في عُرف العَائلة الضَّيّقة وحتَّى ذلك المُجتمع المُترامي من حولهم هو أنَّ رُجولته يَعْتَورِها خللٌ ما، أو في أحسن الأَحوال يُعاني من اضطرابات نفسيَّة وبحاجةٍ إلى عِلاج.

لكنَّه حين جاءهم بقلبٍ مَكسورٍ بعد تِلك العلاقة الَّتي تمَّ اجهاضها مُبكراً لم يكن جاهزاً لسماع المَزيد من نَصائح أمّه في هذا الموضوع بالذَّات. ربَّما سيفكّر لاحقاً بتحقيق أُمنيتها الوَحيدة، غير أنَّه اليوم منشغلٌ بأمرٍ أكثر أهمّيَّة من الزَّواج في نظره؛ إذْ سَيثبت لنفسهِ الهائمة، ولكلّ المُشكّكين بحكايته عن الكهف أنَّ ثمَّة شيئاً يستحقُّ أن يتعرَّفوا عليه عمَّا قريب. هناك في ذلك الجبل الشَّاهق من تلك المدينة العصيّة على تصاريف الزمان.

***

حين دلف إلى "السّيق" وحيداً عصر ذلك اليوم لم يُثر أيّ شُكوك عند من رآه من معارفه هناك، فالرَّجل يأتي عادة برفقة بعض السُّيَّاح، أو باحثاً يُسجّل ملاحظاته عن الأمكنة كمَا فعلَ أثناء إعداده للمادَّة التَّوثيقيَّة في الفِيلمين السابقين.

فكَّر طويلاً خلال الأيام الَّتي سَبقتْ هذه الزّيارة بطريقةٍ مُحكمةٍ للوصول إلى ذلك المكان الذي سقط منه في سفح "جبل هارون" دون أن ينتبه إليه أحد.

استبعد مسألة أن يستعين بأحدٍ من مَعارفه هناك مثل "أم رامي" أو غيرها، فقد يتسرَّب الأمر إلى آخرين وتفسد خطَّته، لهذا اختار أن يدخل المَدينة ويكتشف بعض الأماكن البعيدة عن الأعين، والَّتي من المُمكن أن يبقى فيها مساءً حتَّى يتمكَّن من الصُعود إلى الجبل ليلاً بكلّ هُدوء، وإن لم يُحقّق هدفه في اليومِ الأوَّل فقد يبقى أياماً أخرى هناك حتَّى يحصل على مراده.

احتاطَ للأمر بأن استأجرَ غُرفةً في فُندقٍ شعبيّ بـ "وادي موسى"، وفي كلّ يوم كان يدخل المَدينة، ويستكشفها بعينٍ جديدةٍ تتربَّص بالتَّفاصيل، وتنتظر اللَّحظة المُناسبة للصُّعود إلى ذلك الجبل مجدداً.

أحضرَ معهُ حقيبةً فيها مِصباح، وجاكيت يصلح لاتّقاء بردِ اللّيل، وقارورة ماءٍ بلاستيكيَّة، وبعض حبَّات من التّمر، وقطع البَسكَويت حتَّى تمنحه بعض الطاقة حين يَجوع، إضافة إلى دفتر صغيرٍ وقلمِ حبرٍ لتسجيل مُلاحظاته وما يخطر في باله.

حرص على تصوير بعض الأمكنة بعدسةِ هاتفه النَّقّال، وتسجيل ما يرغب بصوته من بوح بين الحين والآخر. قرَّر أنْ يُخرِج كلَّ ما في أعماقه هناك: أنْ يصرخ، أو يَبكي، يُغنّي أو يُثرثر حتَّى يرتاح من كلّ الأثْقال الَّتي تُكبّل أعماقه.

كان اللَّيل قد هبطَ على المَدينة ودثَّرها بِغلالة كثيفة حين اختار مكاناً في ذلك الوادي ليَكمُنَ فيه حتَّى تخلو المَدينة من زوَّارها والعاملين فيها، ويبتعد الحُرَّاس أيضاً عن الطريق الذي يقودُ إلى الجبل.

حين تسيَّدت العَتْمةُ المكان، وبَدا السُّكون في كامل حضوره، تسلَّل إلى مَدخل الجبل، وبدأ بالصُّعود التدريجيّ إلى قمَّته.

رأى ضوءاً في الأعالي لنجمةٍ ساطعة، كما لو أنَّها تَربض فوقه تماماً لتقوده إلى الطَّريق.

عند الهضبةِ المُنبسِطة المُسمَّاة "سُطوح الجبل" قرَّر أن يرتاح من صُعوده الشَّاقّ حتَّى يَبدأ ضوءُ الفجر بالبزوغ ليجد طريقة للإطلالة على ذلك الكهف من فوق، وربَّما محاولة النُّزول إليه إنْ استطاع إلى ذلك سبيلاً، أو حتَّى القدوم في يوم آخر.

تمدَّد على ظهره، ونظرَ إلى الأعالي فوقه فهاله منظر النجوم، وهي تشكّل لوحة فريدة في سقف تلك القبة السماويَّة الَّتي تحيط بالأرض من كلّ الجهات. تذكّر والجُوع ينهشه جَدي "بيركهارت" المَذبوح هناك فيما كان دليله يقوم بإراقة دمائه المَنْذورة فوق كومةٍ من الحِجارة، وتسلَّلت إلى أنفه رائحة شِواء جَدي "غاريث" وفريقه ذلك المساء، وهو يتقلَّب على جمْرٍ مُتّقد، وكأنَّ الأمر قد تمَّ للتَّوّ.

غرق في خضمّ ذلك التأمُّل الهادىء في مَسيرة حياته وقراءاته، والأحوال الَّتي هاجمته من قبل، وهي تنثالُ في أعماقه بسَلاسة في تلك اللحظات. داهمَتْهُ رعشةُ جَسدِهِ وهو يستذكرُ سُقوطه لكنَّه عادَ للتَّماسُك. بَدَا له ضوء

النجمة التي تربض على قمَّة الجبل يزدادُ سطوعاً، كأنَّها انحدرت من الأعالي مُقتربةً منه في هَجْعته تلك، فاستحال كلٌ ما حوله إلى بياضٍ ساطع.

***

بعدَ ثلاثة أيام من تلك الليلة عثر أحدُ الرُعاة في وِدْيان "البتراء" على حقيبة جلدية فيها دفتر للمُلاحظات وأشياء أخرى، لكنَّ أحداً لم يعثر على صاحبها إلى اليوم.

ما دوَّنه قبل اختفائِهِ

لا مناصَ أبداً من الوُصول إلى هناك

سيحدثُ ذلك سواءً هذه اللَّيلة أو الَّتي بَعدها. سأجدُ طريقي إلى الكَهْف. لن يُوقفني شيءٌ.

سأكتشفُ خباياه من الداخل بكلّ هدوء. من المؤكد أنَّني سأعثر على مخطوطاتٍ قد تُغيّر وجهَ التَّاريخ كتبها فُرسانٌ نُبَلاء، وفِتْيانُ شُجْعان، ومُريدون صادقون. ربَّما تَركوها ذُخراً للأجيال الَّتي تأتي من بعدهم حتَّى يعرفوا الحقيقة. لا بدَّ أنَّهم آثروا الفرار بأفكارهم الحُرَّة إلى رؤوسِ الجبال، والبراري البعيدة حتَّى لا تطالهم سيوفُ الطُّغاة.

عليَّ أنْ أنتبه إلى احتماليَّة أن تكون للكهفِ ممرَّاتٌ سرّيَّة، ودهاليزُ طويلة تمتدُّ في باطن الجبل وتقود إلى ردهاتٍ ضَخمة كثيرة، ومستودعات، ومقصورات كان يستخدمها أجدادُنا الأنباطُ، وربَّما من جاء من أممٍ قبلهم، أو حتَّى من بعدهم كمَخابئ من هَجمات الغُزاة يحفظون فيها الحُبوب، والعَسَل، والتُّمور، والفَواكه المُجفّفة، والقار، والأسلحة.

لا بدَّ أنّهم جرُّوا إليها المِياه أيضاً عبر قنواتٍ خفيَّةٍ، وخزَّنُوها في آبار عميقةٍ، لا يستطيع أن يصل إليها أعداءهم.

يا إلهي كم ستبدو المُفاجأة عظيمةً حينما أعثر على مدينة أخرى تحتَ هذه الأطلال الباقية لم يتحدث أحدٌ عنها من قبل، وسأكون أوَّل من يكشفها للعالم. بعدها سأرسل بعض الصُّور للثلاثة المُتشكّكين في الظاهر على سبيل المُجاملة، والمكذّبين لي في الباطن حقّاً وصدقاً: "أليس" و "غاريث" و "دورثي".

"بيركهارت" نفسه لو كان موجوداً سيصاب بالدهشة. ولو أمكن أن أصادفه في طريقي بين هذه الوديان والمُنعرجات، سأخبره أنَّ حكايته لمْ تَنْطَلِ عليَّ، فكيف لشابّ سويسريّ على هيئة حاجٍّ ألبانيّ يُريد اكتشاف "تُومبكتو" الإفْريقيَّة عبر كلّ هذا الطريق الآسيويّ الطويل؟!.

أكاد أُجْزم أنَّه جاء خِصّيصاً إلى بلادنا لأغراضٍ استعماريَّة، وما قاله في مُذكراته نوعٌ من التَّورية عن الحقيقة، فإنْ كانَ يقصد إفْريقيا فلم بدأ رحلته من "حَلب"، وأكمل طريقه عبر سُوريا ثمَّ الأردنّ وصولاً إلى سيناء ومصر، مُسجَلاً تفاصيل كلّ مدينةٍ وقريةٍ، وعشائرها، وصناعاتها، وزراعتها، وعادات أهلها وتقاليدهم؟!.

وكيف كان لديه كلُّ هذا التَّمهُّل الطَّويل وهو في مُهمَّة أخرى؟

لأقلْ إنَّه كان جاسوساً على هيئةِ رحَّالة للإمبراطوريَّة البريطانيَّة الشاسعة من أجل معرفة الجغرافيا جيداً ومن يقطنها، وقادهُ حظُّه المُذهل إلى إعادة الانتباه للمَدينة المُتوارية في الظلّ منذ قرون بعيدة، فاصطاد بذلك عدَّة عصافيرَ برحلةٍ واحدة.

***

أمس مررت على "أمّ رامي" في حانوتها الصَّخريّ. حدَّثتها عن مِهرجان الأفلام في "لندن"، وكيف استقبل الجُمهور بحفاوة بالغة الفيلم الَّذي أنجزناه عنها. رحَّبتْ بي بشدَّة، وقدَّمت لي فنجان قهوة مع صحنٍ صغيرٍ به حلوى من شدّة الابتهاج. بدتْ مُتأثّرة لأنَّها لم تستطع السَّفر لحضور المِهرجان بسبب أشغالٍ عديدةٍ وظروفٍ

عائليَّة، لكنَّها فَرِحتْ كثيراً بنجاح عرض الفيلم هناك. منَ المؤكَّد أنَّها عرفت بعض التَّفاصيل من صديقتها "أليس".

جميل أنَّها لم تسألني عنها، ولمَ أتيت إلى هُنا مُجدَّداً أيضاً،ووحيداً.

أحترمُ هذه السَّيّدة الَّتي ما تَزالُ تحتفظُ بالعادات الأوروبيَّة في عدم التدخُّل بشؤون غيرها، ولمْ تتسرَّب إليها بعدُ لعنةُ الأسئلة الفُضوليَّة الَّتي يُوجُّهها النَّاسُ عادة في بلادنا لكلّ عابر طريق.

***

"آلامُ الحلَّاج" كتابٌ أرهقني. سامَحكَ الله يا "لويس ماسِنيون" على ما أوردتَ فيه من تفاصيل. أمّا "الفُتُوحات المكيَّة" للأندلسي ابن عربي، فلم يترك لي مجالاً لأتنفَّس، خصوصاً حينما كنت حبيس بيتنا في "الزّرْقاء" لأشهر عديدة. يحتاج هذا السّفر الضَّخم إلى تركيزٍ كبيرٍ في فهم رموزه الكثيرة، وفكّ شيفرته المُعقَّدة. سأحاول قراءة بعض أجزائه على الأقل.

لو كنت سأختار مذهباً لي في هذه الحياة فمن المؤكَّد سيكون "دينُ الحبّ" الَّذي ينفتحُ على الإنسانيَّة جَمْعاء، وينبذُ العُنف، ويحتفي بأمّنا الأرض، وما فيها من الكائنات والشَّجر والحَجَر.

في طُفولتي كانت مَدينتي تضمُّ طُرقاً صوفيَّةً وزوايا للذّكر. ولجتُ عَتباتِها أحياناً مع أخي "محمود" بشكلٍ عفويّ دون أن أفقه كثيراً ممَّا يُقال فيها، غير أنَّي انغمستُ بالحياة وتفاصيلها لاحقاً، وتركتُ جانبي الرُّوحيّ نائماً. فيما غرقتْ المَّدينةُ الصَّاخبة بجماعاتٍ خلطتْ السّياسة بالدّين وأصبحتْ تحلم بالخِلافة، وتمَّ ركنُ "الزَّوايا" في

الظّل، وتبعثرَ المُرِيدونَ في كلّ اتجاه، ولم تبق في ذاكرتي مِنْها غير رائحة البخُّور، والأذكارِ، والمدائح بعد صلاة العِشاء من كلّ خَميس.

ملاحظة: سأقترح على مديرِ مركز الدّراسات حين أعود إلى عَمَّان أن نُنْجز بَحثاً عن "التَّصوُّف في مُواجهة التطرُّف" وندرس الوضعَ في الأردن. رُبَّما هي فرصة لفهم ما فعله "النّمس" وشيوخه من قبله من تدميرٍ مُمنهجٍ لتلك الحالة الجميلة، والركض خلف تحويل الدّين؛ الذي هو نشر صالح الأخلاق، إلى حزبٍ سياسيّ ضيقٍ ينشغلُ بالتَّكفير بديلاً عن التّأمُّل في الكون والتفكير.

***

تقولين إنّني بتُّ غارقاً في الماضي وكوارثه حتَّى النُخاع، ولم تَعودي قادرةً على التَّواصل معي أكثر، لخشيتك من ردودِ أفعالي الغَريبة، وموجات كآبتي الَّتي طَغَتْ على فَرَحي المُعتاد، واحتفائي بالحياة، وأنَّ لديك مُستقبلاً مُشرقاً ينتظرك في بلادك، وبحاجة إلى من يُضيفُ إلى حياتك شَيئاً من السَّعادة والإيجابيَّة لا أنْ يَشدَّك إلى الوراء:

" لقد تغيَّرت كثيراً يا عزيزي. لست "صالح" الذي التقيته أوَّل مرّة. لدينا طريقان مُختلفان. أنتَ تصرُّ على الغوصِ عميقاً في وحلْ المَاضي، و أنَا أحاول التشبُّث بحاضر أكثر أماناً يحتفي بالحياة. سأظلّ أذكر أيامنا الجميلة معاً. أتمنَّى أن تنتبه لنفسك.."

مصيبتي بك يا "أليس" لا بلسم لها. كنتُ أتمنَّى لو تصبري قليلاً، فربَّما نَلتقي في مُنتصف الطَّريق. لكنّك اخترت الذهاب بعيداً نحو "مستقبل مشرق" أتخيّله مثل حديقةٍ من الأزهار البلاستيكيَّة لا روح فيها. لا عليك. أنا أيضاً سأختار الذهاب بعيداً، فكرامتي لا تسمح لي بالتشبّث بامرأة هجرتني فلا تقلقي عليّ.

***

في تلافيفِ رأسي قِفارٌ معزولة يقتلها الصَّمت. فجأةً تُداهمها أصواتُ ضَوَارٍ تَجُوح، وأيائلَ تئنُّ، وخيولٍ تصهلُ، ونساءٍ يصرخْنَ، ورجالٍ يبكون.

أرى سُيوفاً تُسحبُ من أغمادها، ورِماحاً تتشابَكُ في حقولٍ مَحروقةٍ، وبنادق آليَّةً مُصوَّبة على الرُّؤوس، وطائرات تُلقي بحِممِها، ومواد كيماويّة تكوي الأجْساد، وجُنوداً يهربون في كلّ اتّجاه بحثاً عن الحياة بين رُكام الجُّثث.

حين أعودُ إلى نَفسي أُحاول أنْ أُغلق هذه الفُوَّهة التي انفتحت في رأسي من طلقةٍ عابرة، أو ذلك الجُرح الَّذي ما يزالُ ينزف من طعنةِ خنجرٍ في صَدري. أُلقي بنفسي في حُضن أُمّي وأعودُ طفلاً بلا ذاكرة، يتخثَّر الحَليبُ فوق شفتيَّ في خيمةٍ تتأرجحُ وسط صحراء لا نهاية لها. هُناك حيث يلتصق الأَفق بزُرقة السَّماء، وتهبطُ نجماتُ اللَّيل كي تَغفو فوق رمالِها.

تربَّصْتُ بالجبلِ طويلاً حتَّى انقطع المارَّة عن السَّير قُربه، واختفى الحُرَّاسُ. لمْ ينتبه أحدٌ لي وأنا أصعدُ الدَّرجات، وأتلمَّس مُنعرجات السَّفح نَحو القِمَّة. هذه هي اللَّيلة الثَّانية الَّتي أُحاولُ فيها الوُصول هناك، ودخول تلك الفَتْحَة الَّتي أَظنُّها تُفضي إلى كهفٍ ينفتحُ على مدينةٍ شاسعةٍ لا حدود لها.

المقامُ الَّذي في الأعالي، قد يكونُ علامةً فقط تدلُّ على شيءٍ آخر، وربَّما لا ضريح في داخله، ولا علاقة له أصلاً بذلك النبيّ الَّذي تَقاسمَ الرِسالة مع أخيه، ولمْ يَصلْ إلى هذه البلاد قطُّ.

قرأت ذات مرَّة أنَّ هُناك مَقاماتٍ كثيرة في بُلدان شتَّى بالاسمِ نفسِه. لا شيء يستطيعُ أنْ يؤكّد الحقيقة، فالتَّضْليلُ طالَ التَّاريخ المُعاصِر، فما بَالكم بالغابِر.

تلافيف رأسي مأهولةُ بأصواتٍ وخيالاتٍ وروائحَ وألوانٍ لا تُحصى:

مدنٌ مُزْدحِمة بالطَّاعون.

رائحةُ قهوةٍ وهِيلٍ تتسرَّب من خِباء.

حَنُوطُ أمواتٍ مَجْهُولين.

قناديلُ مُعلَّقةٌ في مارستانات[14].

أثداء رَؤومةٌ مُدلَّاةٌ لأطفالٍ جَائعين.

دَناءاتٌ من بَحَّارة عابِرين.

خُمورٌ مَسكوبةٌ فوق الطُّرقات.

---

[14] مستشفى أو مصحة

ترانيمُ في كنائِسَ نائيةٍ.

جَبابرةٌ يَبحثونَ عن مَذبَحةٍ.

كواسِرُ شاردةٌ من حريق.

تبَاريح لعشَّاقٍ حائرين.

هجومٌ مباغت لقبائِل الهِكسوسْ.

طرائدُ هاربةٌ من قنَّاصة مُحترفين.

بركاتٌ تهبطُ على مَجذوبين.

وكان هناك في الرؤى الَّتي مَرَّت من أمامي، وعجبت منها إذ تبدو مُنبثقةً من بين ثنايا هذه المدينة وبيوتها المُجوَّبة في الصَّخر، وتنطبعُ على تعرُّجات وديانها وسفوحِ جبالها، وكأنَّ الأمكنة قد تداخلتْ، والأزمنة قد تداعت:

نبيٌّ عَظيمٌ يَتحنَّثُ في غارٍ يُطلُّ على وادٍ غيرِ ذي زرْعٍ، وأعرابٌ أشدُّ كُفراً ونِفاقاً يتربَّصونَ بهِ، وبلدٌ أمينٌ مُحاطٌ بجِنانِ النَّخيلِ والأعنابِ والتّين والزَّيتون، تُجبى إليه الثَمَراتُ من كلّ نوعٍ، ويذهبُ أهلُهُ التُجَّارالمَهَرَةُ في رحلتي الشّتاء والصَّيف، وغيربعيدٍ عنه ما تبقَّى من أقوامٍ بائدةٍ لصالح وشُعيْب ولُوط، وبقايا حجارة منجنيق بني أميَّة، وهي تستبيحُ الحَرَمَ، وتُسوّي الكَعْبة بالأرضِ.

***

اكتشفتُ مَدخلاً ضيّقاً مُتعرّجاً أسفل هذا الجَبل، لا يكادُ يتَّسع إلا لشخصٍ واحدٍ يُفضي إلى شقّ واسعٍ مَحفور في الصَّخر، يقودُ إلى مَغارةٍ مُمْتدَّة. لها ممرَّاتٌ تأخذ الدَّاخل فيها إلى دهاليز، ثمَّ تنفتحُ على غرفٍ ضخمة ومعابدَ وساحاتٍ وقصور، وقد تكونُ هناك طريقة للوصول إلى الكهف منه لم أكتشفها بعد.

سأعود إلى ذلك المَدْخل الخفيّ مرَّة أُخرى، وألجُ أعماقه أكثر، وأكتشف أسراره.

***

وصلت مُرهقاً إلى "سطوح الجبل". تَمدَّدتُ هُناك على ظهري من الإعياء. اكتشفتُ أنَّ قارورة المَّاء فيها نقاطٌ قليلة، ولا شيء تبقَّى في حقيبتي يمكن أن يُسكت جُوعي. رأيتُ نجمةً تستقرُّ فوق قمّة الجبل تماماً. اقتربتْ منّي بضوئها شيئاً فشيئاً.

ظهرتْ لي من بين البياض السَّاطع ملامح لوجوه أناسٍ كُثُرٍ أعرفهم: أُمّي وهي تَنصحني أن أنْتبهَ لنفسي وأتزوَّج، وأليس تُقبّلني وتهمسُ لي: تعالَ معي إلى الجِّهة الأخرى من العالم، ودورثي تقول: أفرغ ما في أعماقك.اصرخ..اضحك..، ومدير المركز يُوبّخني على تأخري في تقديم البُحوث على مشروع جديد عن التَّهتكِ والخِيانات، والنّمس يدعوني إلى الفِرقة النَّاجية، وأخي محمود يسخرُ من حياتي الضَّائعة، وغاريث يقترحُ فيلماً عن الأيام الأخيرة لغروبِ شمسِ الامبراطوريَّة البريطانيَّة في بِلادي، وماغي تُزغرد وتُهيجِن كما يَفعل بَدْو البدول، وفريق التصوير يلتفُّ حولي بوجوه آسفة في المستشفى.

فجأةً غابتْ كلُّ الوُجوه الَّتي كانتْ تُحاصرني بِصخبِها القاتل، وحلَّت العَتْمة الشَّاملة، فيما شعرتُ بالهواء البَّارد يلسعُني، وكما لو أنّي قُمتُ من مكاني خفيفاً ونشِطاً. لم يكنْ هُناك غير السَّواد، والمِصباح في يدي يُحاول أن يكشف لي شيئاً من تِلك الهوَّة الَّتي تَفغرُ فاها في الأسفل.

قلت لنفسي:

سأنتظر الليل كلّه حتى تبزغَ خُيوط الفَّجر كي أهبط هناك. لن يوقفني شيءٌ أبداً.

بدتْ العتمةُ تُقيّدني بظُلمتها اللَّزجة ثمَّ غَمَرني شَّلالُ ضوءٍ مُبْهرٍ من كلّ الجِهات، فأحسستُ بأنّي أتحرَّر صاعداً نحو الأعالي، ولم يبق من تلك المرائي التي شهدتها ما يمكن أن يطاله النَظر، أو أشعر به غير ذلك النُّور النَّاعم والبارد وهو يَغسلني بلطفٍ، فيما الصَّمْتُ وحدهُ يطغى على كلّ شيء.

2020-2017

عمّان - نيوبورت

سيرة مختصرة

يحــيى القيســي

مواليد قرية حَرْثا - شَمال الأردن 1963

درس اللُّغة الإنْجليزيَّة في مرحلة البكالوريس في جامعة فيلادلفيا بعمّان، ثم تابعَ دراساته العُليا في التَّرجمة في الجامِعة الأردنيَّة.

عمل في وزارة الثقافة الأردنيَّة خلال الفترة من 1996-2006 ، مديرَ تحريرٍ لعددٍ من المجلَّات الثَّقافيَّة، ومديراً للدّراسات والنَّشر، ومُديراً للتَّبادل الثَّقافي، إضافة إلى عُضويته في العديد من اللّجان مثل التَّخطيط، والنشر وغيرها.

عملَ في الصَّحافة التُّونسيَّة والخَليجيَّة والأردنيَّة مُراسلاً ومحرراً منذ العام 1990 وحتى العام 2009، كما قام بالكتابة والإعداد لنحو 25 فيلماً توثيقيَّاً للتلفزيون الأردنيّ، من بينها سلسلة "سِيرة مُبدع".

عملَ في هيئة الفُجيرة للثَّقافة والإعلام مُديراً للشُّؤون الثَّقافيَّة، ونائباً للمُدير العام 2013-2016 وأشرف على العديد من المُؤتمرات الإعلاميَّة المُتخصّصة، والمهرجانات الفنيَّة، والمُلتقيات، والمعارض.

انشغل بالقراءات في التَّصوُّف ومُراجعة الفِكر الدّينيّ، إضافة إلى تطوير تجربته الرُوحيَّة على مدار الخمسة عشر عاماً الماضية، وتفرَّغ تماماً لقراءةٍ مُتعمّقة لكتب الشَّيخ مِحيي الدّين بن عربي خلال الفترة من 2016 – 2018 وما يزال مُستمراً في دراسة هذه التَّجربة الصُّوفية العميقة ومراجعتها بكلّ تجرّد.

يعمل منذ اكتوبر 2018 مديراً للدّراسات والنَّشر في مُؤسسة "أونيكس" البريطانيَّة الَّتي تُعنى بالفِكر والتَنمية المجتمعيَّة، وحِوار الأديان.

أنجز مئات الحوارات مع عدد من أبرز الأدباء والكتاب العرب، وخصوصاً أثناء عمله مراسلاً للقسم الثقافي في صحيفة القدس العربي اللندنيَّة، خلال الفترة من 1999- 2009

أصدر في الروا ية:

- حيواتٌ سحيقةٌ – دار خطوط وظلال – عمّان - 2020
- بعد الحَياة بخطوة – المؤسّسة العربية للدراسات والنشر – بيروت 2017
- الفِردوس المُحرَّم – المؤسسة العربية– بيروت 2015- ط1، ودار خطوط وظلال – عمان – ط 2 - 2020
- أبناءُ السَّماء – المؤسسة العربية للدراسات والنشر – بيروت 2010
- بابُ الحَيْرة – المؤسسة العربية للدراسات والنشر – بيروت 2006

وفي القصة القصيرة:

- رغباتٌ مشروخةٌ – دار النسر للنشر والتوزيع – عمان – 1996
- الوُلوجُ في الزَّمن الماء – دار طبريا للنشر والتوزيع – إربد – 1990

وفي المجال الثقافي:

- ابن عربي في الفتح المكي – مؤسسة أونيكس للنشر – بريطانيا 2019
- حمّى الكتابة – حوارات في الفكر والإبداع – منشورات الدائرة الثقافية لأمانة عمان 2004
- المسرح في العالم – تحرير ومراجعة ترجمة – هيئة الفجيرة للثقافة والإعلام 2012